سليم مطر كامل

امرأة القارورة





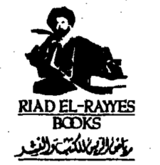



إمرأة القارورة
رواية

سليم مطر كامل

إمرأة القارورة

رواية



56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

THE LADY OF THE BOTTLE

by

SALIM MATAR KAMEL

First Published in the United Kingdom in 1990

56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

British Library Cataloguing in Publication Data

Kamel, Salim Matar
The Lady of the bottle
1. Fiction in Arabic - Iraqi united, 1945–
I. Title
892–736

ISBN 1-85513-058-0

الطبعة الاولى: آب/ اغسطس ١٩٩٠

فصل ابتدائي

قبل الولوج في عوالم هذه الحكاية الغرائبية مع (امرأة القارورة) العجيبة، يهمني أن أعلمكم منذ الآن أني لست مسؤولاً عنها ولم أشارك في أي من أحداثها وخيالي بريء منها. في الحقيقة إني أجبرت على نشرها من باب الواجب لا أكثر. منذ أن عثرت على هذه الحكاية بطريق المصادفة، قبل أسابيع، وأنا متردد في إحراقها أو رميها في البحيرة. وقد فشلت جميع جهودي لاكتشاف شخصية كاتبها الحقيقي. إني أنشرها ولم أحاول أن أغير في سطورها أية كلمة، تركت المخطوطة كما سلمتني إياها سيدة الحانة.

لعله من الضروري أن أحكي لكم باختصار عن ظروف حصولي على هذه المخطوطة، لكي تحكموا بأنفسكم على طبيعة علاقتي بها. وربما تساهمون معي في معرفة شخوصها وحقيقة أحداثها.

تمّ الأمر عندما وصلتُ منذ أسابيع إلى مدينة (جنيف). أقول (وصلت)، إنما في الواقع، وجدت نفسي فيها. بعد تيه عظيم خلال أعوام في سوح الحروب وفقدان في عوالم الانفاق، خرجت من أعماق الأرض لأجد نفسي في فجر يوم بارد من

شباط ١٩٨٨، بين صخور شواطىء بحيرة (جنيف). خرجت مبللاً أبحث عن دفء، فقادتني أقدامي، أنا المبهوت، في شوارع المدينة حتى دخلت إلى حانة مطلة على نهر (الرون). هناك قدمت إليّ صاحبة الحانة كأس نبيذ أحمر وهذه المخطوطة.

لم أجد حتى الآن أي تفسير لكيفية حدوث هذه المعجزة. فجأة وجدت نفسي أنتقل من جبهة الحرب بين الأهوار والصحارى الى مدينة لم أعرفها إلا من خلال السمع والقراءة. فأنا ببساطة، كنت أمضي عامي السابع في الحرب. منذ الشهر الأول على اندلاعها عام ١٩٨١، أمسكوني في الشارع وحشروني في بدلة عسكرية، ودربوا يديّ على استخدام السلاح، ثم وضعوني في شاحنة مع رجال من أشباهي. رمونا بين الأهوار وقالو لنا: هذه أرض الأسلاف احفروا فيها مواقعكم، وإن تراجعتم عنها فإننا سنرجعكم إليها مرة ثانية، ولكن على هيئة جثث لندفنكم فيها.

طيلة سبعة أعوام لم أكن أدرك من الوجود غير أهوال الحرب وذلك الشوق الدفين للهروب نحو حلم تملكني منذ صباي: «أوروبا». ما مضى يوم إلا وكنت أرسم من عذابات ورعب الحرب لوحة لأوروبا، كإله تعس يصنع من أطيان كوارثه مخلوقاً سامياً قادراً على منح اللذة لخالقه. من شبقي المكبوت تحتُ جسد أوروبا، ومن تجارب حُبّي الفاشلة صنعتُ قلبها، ومن حاجتي إلى الراحة والأمان رسمتُ ملامحها الخضراء، ومن توقي إلى العدالة والانعتاق خيطتُ لها ثوباً أبيض فضفاضاً يرفرف كأجنحة فراشة ويضمني بين ثناياه كما

تضمني أمّ في عباءتها السوداء. أوروبا صارت مخلصي المنتظر وأرضي الموعودة. حتى عذاباتها كنت أراها تختلف عن عذابات الشرق. جوعها وتشردها وعنصريتها وبؤسها، كان أكثر استساغة من أمثالها في بلادي.

خلال سبعة أعوام الحرب قمت بسبع محاولات هرب، انتهت ست منها بالفشل. أما السابعة فنقلتني إلى (جنيف). لم تكن بالضبط محاولة هرب قدر ما كانت تيهاً في أنفاق المجهول. وإذا كان الحظ قد حالفني في شيء، فذلك بأني خلال سبعة أعوام، تمكنت بأعجوبة من أن أنجو من حكم إعدام نفذ بحقّ الآلاف من الفارين مثلي. أعدموا وعُلقت جثثهم أمام منازلهم ليكونوا عبرة للآخرين، بل إن عوائلهم قد أجبرت على دفع ثمن طلقات قد أعدم بها أبناؤها.

يمكنكم أن تقولوا عني إني لم أكن شجاعاً في الدفاع عن بلادي، ولكن إذا كانت الشجاعة في عرفكم تعني التضحية بالنفس، فإني على العكس منكم تماماً، إذ تُقاس شجاعتي بمدى تمكني من حفاظي على نفسي. ثم خبّروني بالله عليكم، هل من الضروري أن تنسحق روحي وتتقطع أوصالي لكي يجلس القادة المحترمون في النهاية إلى طاولة المفاوضات لتقاسم بضعة كيلو مترات عند حدود ملطخة بدماء ملايين بائسة، ثم هل تضمنون لي أن هؤلاء القادة، بعد الانتهاء من مفاوضات الحدود، سيتفاوضون مع الرب لارجاع حياتي التي نهشتها دباباتهم وبعثرتها قنابلهم؟

أشد ما كان يقززني ويدفعني إلى التمرد والهرب، صورة شاذة كانت ترتسم في مخيلتي في أثناء تفاقم المحنة: إن قادة

الدولتين يتناكحون فيما بينهم ونحن جحافل الجيوش عبارة عن حيامن معتقة يقذفونها في بعضهم البعض. ننسكب نحن شهداء ملذاتهم وهم يرتعشون شبقاً في خطبهم وشتائمهم وتهديداتهم لبعضهم البعض. بعد أن يتعبوا وينتهوا، ينبطحون على ظهورهم في سرير المفاوضات ويمسحون جبهاتهم ومؤخراتهم من جثثنا، ثم يتعانقون بحّب.

«شجاع إذا ما أمكنتني فرصة فإن لم تكن لي فرصة فجبان».. كنت أردد قول (معاوية بن أبي سفيان) هذا خلال جميع أعوام حربي السبعة وجميع محاولات فراري التي بدأت من المصادفة ونمت إلى الضرورة لتنتهي بمعجزة لا واقعية تخطت قوانين الزمان والمكان. فجأة انتقلتُ من متاهات أنفاق التاريخ، مثخناً بجراح الآلاف من أسلافي وأبناء جلدتي، لكي أخرج الى نور الحاضر وهو يغمر مدينة لا أعرف منها غير اسمها وهذه الحكاية العجيبة التي سأعرضها لكم في فصول قادمة.

قبل معجزة انتقالي إلى (جنيف) كنت أمضي سنتي السابعة في الجبهة. قبل أقل من عام وبعد فشل محاولة فراري السادسة، أمسكوني مشرداً قرب دير في (الموصل)، وأعادوني إلى جبهة الأهوار. قالوا لي: «أنت هنا لن تحارب، إنما عليك تُشبع بطون المحاربين، رصاصات البندقية لن تنفع دون رصاص الطعام الذي ستحشو به بطونهم». كنت لا أريد من حياتي غير السكينة والنوم. وبينما خطوات العسكر تضرب في رأسي، كنت أتوهم أني لن أستيقظ إلا بعد أن يكون العالم قد غطّ في نومه الأبدي. مطبخنا كان قاعة كبيرة في أعماق

الأرض. كان جدارها الصخري مليئاً بنقوش أثرية لملوك قدماء وهم يصيدون ويقتلون ويتسلمون شرائع ويخوضون حروباً ويتناسلون. بجانب حوض غسيل الصحون اتكأ على الجدار نصب امرأة بالحجم الطبيعي. كانت واقفة بشموخ وهي تمد اليد اليمنى بقارورة صغيرة بحجم كأس، وقد التفت على ذراعها اليسرى أفعى، محشور رأسها بين نهديها. سمعت الجنود يقولون إنها قاعة ملوك قدماء عثروا عليها في اثناء حفر الخنادق.

وكرر أحدهم حكاية (ملّا يوسف) عريف المطبخ، عندما تلمس لحيته المصبوغة بالحناء، وتعوذ من الشيطان، وكشف لهم سرّ هذه القاعة، محاولاً أن يضفي على لهجته الجنوبية بلاغة اللغة الفصحى. قال إنهم ملوك شعب من الزناة، لم يفرقوا بين عشيقة وأخت وأم، فلطشهم الله على الحجر، وها هي آثارهم عبرة لمن يراهم. أما هذه التي ترونها أمامكم فهي ملكتهم وأمهم وعشيقتهم جميعاً. منها تعلم البشر الفسق، وقد صنعها الشيطان من لحم الأفعى التي تنكر بها لإغواء آدم وحواء، لتكون أول غاوية في التاريخ. نجحت في إغواء حتى الأنبياء والحكماء، منذ قابيل وهابيل وإبراهيم وهاجر وسليمان ولوط ويوسف وزليخا، ولم يقف بوجهها إلّا (الإمام علي) الذي عندما عرضت عليه جمالها غضب وضربها بسيفه (ذو الفقار) هنا قبل أن تهرب. صمَتَ (ملّا يوسف) مرتعباً وهو يشير إلى أثر الجرح الذي تركه السيف على امتداد بطنها كفطر طويل غير مرئي يشبه الجرح، امتد من العنق حتى أسفل البطن. ثم بعد أن استغفر وتعوذ وبسمل استطرد بحكايته عن كيف أنزل الله عليها عقابه ومسخها مع عشاقها وأسلافها إلى حجر، إذ

ضجت الأرض والسماوات بأدعية المؤمنين وشكاواهم ليخلصهم الله من فسقها. أغمض (ملاّ يوسف) عينيه، وفرك مسبحته السوداء، واتخذ وجهه المحروق بالشمس والحرب هيئة بلوطة ناضجة، وكشف السر الأكبر: «رغم تحولها إلى حجر فإنها ما زالت قادرة على التأثير على القلوب والاستجابة لنذور العشاق وأتباع الغواية».

صحيح أن الكثير من الجنود قد سخروا من حكايته باعتبارها محض خرافات، وادّعوا أن هذه القاعة ما هي إلا آثار من بقايا ملوك سومر واكد، لكن الزمن كان يبدو لصالح تصريحات (ملاّ يوسف) إذ مع مرور أعوام الحرب وما تخلفه في قلوب المحاربين وأبدانهم من جروح وعاهات وكوابيس ونكبات، شاع بينهم ما يشبه طقوس التقديس لتمثال هذه المرأة. لم يقتصر الأمر على مصدّقي الخرافات والمتدينين وحدهم، بل حتى المعتنقين لمبادىء علم وحداثة. جميعهم ساهموا دون قصد أو بقصد في خلق نوع خفي من الطقوس الصامتة والسرية أحياناً من دون أن يدركوا بالضبط من هو المسؤول. هكذا كأنهم ورثوا هذه الطقوس عن أسلافهم، فترى التمثال قد استحال مع الزمن إلى لوحة خطّ عليها الجنود كلمات عشقهم وشتائمهم وحكمهم ورسومهم الفاحشة. الفنانون منهم (فطريون وأكاديميون) كانوا يلطخونها بألوان إبداعاتهم المتنوعة، وقد رسموا لها ثوباً شفافاً تبرز منه جميع تفاصيل جسدها حتى المخفي منها عادة في عريها. يوماً تراهاشقراء كممثلة خليعة بعيون زرق أو خضر حسب زاوية النظر، بعدها بأيام ينهض أحدهم وهو ثمل ويحيلها إلى سمراء بعيون داجية وشفاه راقصة غجرية. وفي شهر رمضان وأيام عاشوراء يعمد

الجنود إلى إضفاء الوقار عليها وغسل المكياج عنها وإلقاء نوع من الحجاب الأسود الشفاف عليها، فتبدو كأمّ حزينة. وفي أعياد الفصح ورأس السنة، يعمد الجنود المسيحيون إلى إضفاء بعض الألوان الخفيفة وإشعال الشموع في قاروتها وفي فم أفعاها وعلى نهديها ثم تنثر عليها أغصان الآس والزيتون لتصبح أشبه بعذراء سريانية. خلال سبعة أعوام قد زين الجنود عنقها ورأسها وذراعيها، بل حتى كاحليها، بأنواع من مزق قماش أخضر وحُلي رخيصة، بعضها صنعوه بأنفسهم من أسلاك دبابة إيرانية محطمة.

لقد شاء القدر أن تكون لي هذه المرأة ملجأً وحيداً، استمد من وجودها بقربي ذلك الدفء اللذيذ الذي ما عرفته إلا أني أدركت وجوده الغامض. فرشت بطانيتي قربها على الأرض، وجعلت وسادتي بين قدميها، وأمضيت جميع ليالي سنتي السابعة وأنا أرقب هيبتها وأتنصت إلى دقات قلبها حتى أغفو. في بعض الليالي عندما تشتد وحدتي بين رعب القتلى والجرحى والمنتحرين، كنت أغافل الجنود وهم نيام لكي أحتضن معبودتي وأهمس لها بعذاباتي وبأسرار محاولات هربي السبع التي لو علم بها قادتي لاستحق عليّ حكم الاعدام ست مرات متتالية. وكانت هي تواسيني خِفيَة بعينيها وتهمس لي بكلماتها. إني على يقين من أني وحدي بين الجنود وافقت المرأة على أن تكشف لي أسرارها. قالت إن حكاية (ملاّ يوسف) هي شذرات من حقيقة، أما جوهر الحقيقة الذي لم يكتشفه أحد غيري فهو أن التي مسخها الرب إلى تمثال هي شذرة من وجود أعظم.. شذرة من روح أنثى شاملة تمكث حيةً في شهوات الرجال.

أخبرتني بسرّ لم يكتشفه قبلي إلاّ القلائل: إني أعيش عالم حلم في رأسها. الوجود بأجمعه ما هو إلا خيال في رأس هذه المرأة التي تعيش في عالم آخر هو أيضاً خيال لكنه في رأس كائن أعظم. كل هذا التاريخ من آلاف وآلاف الأعوام والأقوام والأوطان ما هو إلا دقائق من الحلم في رأس امرأة تمارس رعشتها الأولى في أحضان عشيقها. هما يعيشان في عالم آخر من حلم يدور في رأس الكائن الأعظم. إننا حلم رعشة، بعنفها وهمجيتها وألمها وبهجتها وترددها بين تلاحم وتناء. شعوب تولد وتفنى، حروب تخاض وحضارات تقام وبشر يمارسون لذّة وتناسل، وارتعاشة هذه المرأة ما زالت تمنح الحياة لحلم وجودنا. في دمها وتلافيف رأسها يعيش جميع أسلافنا، رحلوا إلى الأعماق لينقلوا إشارات لذّتها في أنحاء جسدها. خالدون أحيّاء في أعماقها بين عوالم بدنها الشاسع، يمضون خلودهم في رعشة أبدية وتناسل سرمدي وتناسخ في أبدان الأحفاد.

يا ترى، كم من لحظات رعشة قد استغرقتها سنوات حربي ومحاولات فراري الست؟ لا أتذكر من حياتي غير الحرب، وقد تحددت مراحل عمري بمحاولات فراري. ولم تجبني المرأة عن سؤالي إن كان لي ماض آخر. جلبوني هنا دون أن يعرفوا عني حتى اسمي. اندمجت في تقمصي لدور الرجل المعتوه، مسخرة الجنود، الأخرس، المجهول الهوية والأصل.

لا أتذكر من حياتي السابقة غير سبعة أعوام حرب أمضيتها طريداً بين خنادق موت وأهوار وصحارى وجبال. أتذكر أنه بعد بضعة أشهر من اندلاع الحرب، كنا في طريق البصـرة الصحراوي عندما هاجمت الطائرات شاحنتنا وفجرتها مع

جميع الجنود الذين تخلفوا فيها ولم يتح لهم الهروب معنا. انتشرنا كوحوش كسرت أقفاصها، بين رمال وصخور ومرتفعات، بعيداً عن أعين طيار أحمق تخلف عن جماعته، وظلّ يلاحقنا برشاشه بإصرار عجيب كأنه يعرفنا شخصياً.

شاءت المصادفة أن تمر من هناك قافلة من البدو قادمة من الحدود الجنوبية في طريقها إلى الحدود الغربية. التجأت إليهم عندما وجدوني هائماً في الليل وقد عزمت أن أظل أجول في الصحراء حتى الموت ولا أعود إلى الجبهة. استغثت بشيخهم: «أنا دخيلكم.. خلصوني اللـه يخلصكم..». الآن، وأنا في (جنيف)، يمكنني أن أجزم بيقين أن شيخ القافلة ذاك، رغم بساطة مظهره، كان ذا هيبة ملوك ووقار أنبياء. تلوح في ذاكرتي الآن صورة مشوشة لذلك الشيخ الذي تناديه عشيرته (أبو يحيى). كان كمرآة احتفظت بآثار أماكن وعصور وأقوام انعكست فيها صورهم. إنه ساحر خرافي وحكيم متفقه وبدوي متمرس. عندما أصغى إلى حكايتي هزّ رأسه محدقاً في خطوط رمال رسمتها أصابعي. قال لي أشياء كثيرة لم أصدقها إلا بعد أن عشت أحداثها. أخبرني بجميع ما سيحصل لي في سنواتي السبع القادمة: محاولات فراري وانتقالي، بل إنه كشف لي شيئاً أعظم من هذا: حكاية (امرأة القارورة) التي سأتعرف عليها بعد سبعة أعوام في (جنيف). ولم أصدقه.. نخوْته أن يوصلني إلى الحدود. سأحاول عبور الفرات والتسلل إلى سوريا ثم إلى لبنان لتدبير جواز للسفر إلى أوروبا. قال إنه من أجل خاطري سيحاول. لكنه بعد ثلاثة أسابيع، كما تنبأ، اضطر إلى تسليمي إلى فرقة عسكرية أوقفتنا في الطريق. اكتشف ضابط الفرقة ذو الشارب الأحمر والعينين الزرقاوين أني غريب

بين العشيرة. في البدء رفض الشيخ أن يسلمني إليه. وكادت بسببي تنشب الحرب بين الطرفين، لولا أن اكتشف الضابط أخيراً أن هؤلاء البدو هم فرع من أخواله (عشيرة أمه). رأيت الضابط يختلي بشيخ عشيرة أخواله خلف بقايا معبد مهجور، ليقررا مصيري. عندما عادا، أقنعني الشيخ أن أسلم نفسي إلى العسكر بعد أن تعهد الضابط بشرفه أن يضمن حياتي وينجيني من حكم الإعدام بتسليمي إلى السلطة على أني كنت تائهاً في الصحراء ولست فارّاً.

بعد أقل من عام قمت بمحاولة فراري الثانية. ذات يوم خريفي أخرجت رأسي من الخندق، فرأيت شمساً غاربة تفرش على الأهوار حلّة ذهبية وتنشر في الفضاء رائحة عفن. إزاء ذلك الصمت الموحش أحسست بصخب في أعماقي بين حشود بشر تتجادل وتسخر من بعضها البعض. قلت لأهرب عسى أن تسكت، فزحفت على بطني وتوغلت في أحراش البردي. كانت الخنازير الوحشية وأفاعي الماء والطيور والجواميس لا تزال تعيش صدمة استقبالها لنا، نحن أحفاد سادتها قد عدنا بحيوانات حديدية ووسائل دمار حديثة، حفرنا خنادق ورحنا نعبث بطبخ عصيدة انتصارنا من معجون ضحايانا. حتى هذه الحيوانات الوحشية قد صُدمت مشاعرها وفقدت شجاعتها وراحت تهرب من أية حركة حتى لو كانت صادرة عن حيوان آخر. قلت أهرب وألتجىء إلى العشائر النائية عسى أن أجد فرصة للتسلل إلى الخارج، لكن جنود الجيران انبثقوا فجأة من الأحراش مثلما يحدث في سينما المغامرات. كانوا يصرخون: «اللهو أكبرو»، وارتموا فوقي. رغم استسلامي، شاء أحدهم

لكي يضمن خضوعي تماماً، أن يطعنني بالحربة في كتفي، وجروني وراءهم مقيداً ككلب.

الآن وبعد أعوام على هذا الحادث، إذ طالعت حكاية (امرأة القارورة)، يمكنني القول إني في يوم هربي ذاك قد عشت جوّاً غرائبياً شبيهاً بأجواء هذه الحكاية. بينما كانوا يقودونني بين الأهوار إلى موقعهم، كان المساء قد حلّ وجراح كتفي ما زالت تنزف. حشود روحي راحت تصحو من غيبوبتها وتتمطى وتطرح عليّ أسئلتها التي استفحلت بسرعة إلى شكوك وعتاب وشتائم ودقّ على جدار صدري. شرعت بذرة من الكآبة تكبر وتتكور وتستحيل إلى لهيب يحرق أحشائي ويمتد إلى رأسي وأطرافي. فجأة، دون أن أدرك كيف، شقت الكون صرخة ما سمعت مثلها قبلاً، ومادت الأرض من تحتي وقدح ضوء كبرق ثم لا أدري بعدها ماذا حدث. كأنني تفتّت وتبعثرت في الوجود. بعد تيه في عوالم من نور وألوان وأشباح، كانت تتوضح على هيئة جنان خضراء فيها منازل بيضاء كالثلج تنتثر بين حدائق وأعشاب وغدائر تصب في بحيرات تطفو على سطحها مواكب عشاق وحوريات كقديسات وملائكة كأطفال. وأنا كائن بدائي مثخن بجراح وعار هزيمة، أزحف على الشاطىء أريد أن ألحق الأصحاب في مواكبهم، لكني كنت أغرق في دوامة ماء.. أغوص وأغوص و... لحظة لفظت رمقي الأخير، فتحت عينيّ.

صحوت على نفسي في شاحنة وجندي مخدّش الوجه، ممزق الثياب، قاسي الملامح، يصب على وجهي ماءً. خاطبني وهو يفكك بندقيته ويمسح حربته من الدم: «شوف كيف حررناك منهم.. الحمد الله القنبلة ما قتلتك.. هم، بعثناهم إلى جنتهم

كلهم دفعة واحدة..». وعندما أردت أن أتحرك، تجمدت أطرافي إذ شعرت بقطع لحمي المحروق تتساقط وتلتصق بأسمالي.

ما مضت أشهر حتى قمت بمحاولة فرار ثالثة. قبل أن تتيبس حروقي وتلتئم جراحي أرجعوني إلى الجبهة. منذ أن ألبسوني بدلتي العسكرية من جديد، هبت فجأة حشود روحي التي كانت غافية في أثناء فترة العلاج. من جديد وبعنف أكثر نطت إلى رأسي فكرة الفرار. تدبرت جوازاً مغربياً مزوراً وسافرت، لكن سوء الحظ أرجعني إلى الجبهة من جديد. في حزيران ١٩٨٤، لم تكن قد انتهت بعد السنة الثالثة على الحرب عندما شرعت في الاتصال ببعض المعارف من العمال المصريين. أحدهم تدبر لي جواز سفر مغربياً، وعرفني بأحد المغاربة ليعلمني مفاتيح لهجتهم؛ فكنت أمضي وقتي بتعود لفظ الكلمات العربية من دون حروف العلة، فبدلاً من (السلام عليكم) كنت أردد (لسلم علكم).

كان حلم (أوروبا) يستحيل في أعماقي إلى صرخة تمرد راحت تنشدها حشودي وهي تدقّ على جدار روحي. كان مساء خميس عندما نزلت في إجازتي من الجبهة. الساعة الخامسة وصلت إلى موعدي مع المصري، والساعة السابعة كان الجواز بحوزتي ويحمل صورتي، الساعة العاشرة كنت في الباص الراحل إلى اسطنبول. لم يكن يشغلني ماذا سأفعل هناك. المهم أن أخرج من الجحيم وبعدها لا يهم أين. طيلة ساعات الطريق وحتى أيقظني رجال الأمن في الفجر، عيناي كانتا مغلقتين على آخر أنوار بغداد .وقد انبجست في رأسي صورة مدينة متلألئة تتوسطها بحيرة تفرش مياهها بين سلسلتين

جبليتين. شاء سوء الحظ أن يكتشفوا تشابهاً بين اسمي في الجواز واسم أحد المطلوبين، فأوقفوني. في الليل، قبل أن يحققوا معي ويكتشفوا حقيقة هويتي، تركت لهم الجواز وهربت من النافذة. عدت إلى وحدتي العسكرية دون أن يكتشف أحد محاولتي.

المرة الرابعة كانت في شتاء ١٩٨٥. هربت مع أحد الأصحاب إلى أعماق الهور، وانضممنا إلى جموع عصاة فارين من الجيش. كان صاحبي هذا مهووساً بممارسة اللذّة على خيال نساء أعدائه. ابتدأ عندما كان صبياً على صورة وهمية صنعها لـ (غولدا مائير) ثم بعدها انتقل إلى (مسز تاتشر) ليجعلها تصرخ كل ليلة بين ذراعيه. كان يفوقني بجنونه ولهفته إلى (أوروبا). التجأنا إلى عصاة الأهوار أملاً في العثور على طريق خلاص. رحنا نمارس حرباً أخرى لا من أجل الأرض بل من أجل اغتصاب قوتنا اليومي. كنا نتنكر برتب عسكرية كبيرة، ونوقف القوافل لنسلبها بأوامرنا المزيفة. كنا نتنقل مجموعات مجموعات، بعيداً عن أعين الطائرات المروحية التي كانت تقذف برشاشاتها الحارقة على أحراش مأوانا. كنا كحيوانات كاسرة مهددة من جميع الأنحاء بمصير الانقراض الزاحف: عسكر بلادنا من الغرب، وعسكر الجيران من الشرق، ومن الداخل هناك عملاء السلطة من أبناء عمومتنا.

ضربات الطبيعة ونكباتها كانت لنا بالمرصاد: بعوض، ملاريا، ولسعات أفاع وعقارب ونهشات خنازير، وما تجلبه لنا السماء بين حين وآخر من قنابل وصواريخ قد أخطأت أهدافها لتسقط على رؤوسنا. وقعت أنا فريسة لسعات البعوض

وانتشرت في دمي جراثيم ملاريا، فكنت في نوبات الحمى أغمض عينيّ وأشاهد دواخلي قد لوثها الموت وصارت مثل الأهوار قد امتزجت مياهها ببارود ونفط وجثث عسكر. صاحبي مات بجانبي وهو يواسيني. انحنى على الشاطىء فجاءته رصاصة ترنّ واخترقت الرقبة. بهدوء استلقى على ظهره كأنه قد تهيأ كعادته لتخيل صورة زوجة قاتله، وابتسم بألم وهمس بلهجة معتذرة: «ماشي الحال.. هذا نصيبي..» ومات.

عدت منتكساً إلى بغداد بعد أن شتتت الطائرات والخيانات الكثير من جماعاتنا، واستهلكت الملاريا دمي. عدت، لا لأموت بين أهل وأصحاب لا أتذكرهم، بل إنما لأني لم أكن أمتلك خياراً آخر. لكنهم لم يعدموني. لا أدري لحسن حظي أم لسوئه، اعتبروني مشمولاً بعفو صادر عن الفارين، وأدخلوني المستشفى وعالجوني حتى شفيت وأعادوني إلى الجبهة.

المحاولة الخامسة كانت ذات ليلة من ربيع ١٩٨٦، عندما قررت أن أقطع ذراعي بتفجير قنبلة يدوية في كفي. أخرجت يدي اليسرى إلى حافة الخندق ورجوت أحد الأصحاب أن يسحب المسمار من القنبلة لأن يدي الأخرى قد شلّها الرعب. أتذكر، رغم أنه وافق وسحب المسمار ارتمى فجأة عليّ وراح ينحب كطفل ليثنيني عن تفجير القنبلة في اللحظة الأخيرة.. لكنها انفجرت. ولأنها كانت نصف فاسدة، فهي لم تنهش مني غير إصبع واحد. أدخلوني المستشفى وعالجوني ثم أرجعوني إلى الجبهة بعد أن أخبروني أنهم يشكّون في ادعائي بالحادث، لولا شهادة الأصحاب لأعدموني. أنذروني أن أي تكرار

لمحاولتي فإنهم سوف يلبون رغبتي بأنفسهم بوضعي في مدفع وتفجيري على مواقع العدو.

محاولتي السادسة تمت رغماً عني. كانت هروباً من الموت أكثر مما هي هروب إلى الحرية. كانوا قد رموني في جبهة (الفاو) في موقع أرضه من أطيان وقبور جماعية سرية، تجعل الأرض تنز دماً حينما تمرّ فوقها شاحنة أو دبابة. يوماً بعثني ضابطي إلى الخندق المجاور، وما أن خرجت حتى قصفته الطائرات. ركضت إلى خندق آخر، فطردني الضابط وأمرني بالعودة، وما أن خرجت منه أيضاً حتى قصفته الطائرات، أربعة خنادق متتالية لا تقصفها الطائرات إلا عندما أتركها! سمعتهم يتشاورون بينهم بأني إما نبي وإما جاسوس، فهربت.

عدت إلى بغداد. وعن طريق صديق قديم كان سياسياً وتحول إلى مهرب محترف بعد أن تفجرت مواهبه المنسية يوم قبضوا عليه فتنكر لقضيته لقاء ضمان حمايته، تمكنت من عبور الجبال للالتحاق بالمسلحين. أخبروني في بغداد أني سأستطيع من هناك التسلل الى تركيا ومنها إلى سوريا وشق طريقي إلى أوروبا. في مثلث الحدود العراقية ـ التركية ـ الإيرانية، في أودية محاطة بجبال صخرية تهابها أعتى الجيوش، كان ينتشر آلاف الرجال المسلحين مع عدد أقل من النساء، يقيمون في كهوف وتحت سقوف صخرية لاتفتتها أشد القنابل فتكاً. آلاف من العالمين. أكراد وعرب، مسلمون ومسيحيون ويزيديون وملحدون، رعاة وفلاحون وعسكريون وجامعيون، في طبيعة قاسية من ثلوج وأمراض وقنابل طائرات ومؤامرات خفية. كنت من قبل في حرب نظامية بين جيشين متجابهين، أما

الآن فاني في ساحات حروب بين جيوش سرية وعلنية، قبائل وعوائل ومشايخ ومثقفون وتجار، يرتدون أثواب ثورة ويرطنون بمدن فاضلة، ويخوضون حروباً فيما بينهم. بعضهم مع دولة وضد أخرى، وبعضهم ضد هذه ومع تلك، وبالنتيجة فإن الجميع يتعاملون مع الجميع وضد الجميع.

فجر يوم كنت منحدراً في واد مع مجموعة من الأنصار، مسربلين بأشعة نحاسية غمرت المكان. ثمة شيء ما غامض كان يضفي على المشهد شحوباً غريباً ينبيء بكارثة، وقد ارتسمت على وجوه الجبال ملامح ترقب وحذر. لقد تعمق لديّ هذا الشعور عندما لمحت مجموعة غربان سوداء تحوم فوقنا بين أغصان البلوط. لا أدري أية قوة غريبة دفعتني إلى أن اتلكأ في مشيتي ووقفت لأتبول خلف صخرة. فجأة لعلع الرصاص في الغابة وتقطعت الأغصان واختلط نعيق غربان مع صرخات بشرية جريحة. عندما ركضت وقع عليّ رفيق جريح. سقطتُ وسقط هو فوقي. كان وجهه فوق وجهي وقد جحظت عيناه في عينيّ ونزفت دماء من ثقب في جبهته. رغماً عني تسربت قطرات من دمه إلى فمي وامتزج طعمها حاراً حامضاً مع لعابي، فأحسست لحظتها بتقزز كما لو أن آلاف الثعابين قد تسللت إلى أحشائي. كنت أصرخ وأنا لا أفكر إلا بشيء واحد: كيف أزيل دم رفيقي من أحشائي. لقد شربت دمه وهو يموت.

لم أعد أدرك شيئاً من الوجود. تلاشت لعلعة الرصاص وانفجارات القنابل. رحت أركض وأركض وأنا أبصق.. بصقت حتى دمي.

بقيت هائماً بين جبال وغابات أياماً لم أحسبها. أقتات على

الأعشاب والثمار، وأتحاشى البشر وقد تمزقت عني ثيابي وصار لوني بلون الأرض. كنت ملتزماً الصمت المطبق لكي أصغي جيداً إلى حوارات صاخبة جارية بين حشود بشر روحي. رغم كثرتهم فإني كنت أراهم حشدين متجابهين في حوار يمزج بين خصام وتفاهم. كانوا أشبه بحشدين. واحد من حكماء وآخر من معتوهين، وجميعهم قد أثملتهم الأحداث وأنهكتهم.

في نهار ربيعي عثر عليّ أحد الرهبان. كنت مستلقياً في غدير، والماء يغطيني حتى أنفي. كانت عيناي مغمضتين وأنا أصغي إلى صخب حكمائي ومجانيني ممتزجاً بخرير الماء. فتحتهما لأرى مصدر صوت بشري رنّ في الوجود. عبر الماء الشفاف، رأيت وجهاً نورانياً مرسوماً على صفحة السماء. لم أتحرك، كنت أنظر إلى الوجه وأنا في خدر ولا مبالاة مطلقين. كنت أحس بنفسي في انفصال عن الواقع، كأني في ذاتي كنت طائراً غير مرئي أحوم مراقباً حشود حكمائي ومجانيني وهي تضطلع بعملية إدارة بدني في الأرض.

قادني الراهب إلى الدير، آواني وأطعمني وظل حتى يوم فراقنا في حيرة أمام سبب نحيبي كلما صدحت في الدير تراتيل الرهبان. والحقيقة أني لم أكن أكثر معرفة منه بذلك. عندما أمسكني العسكر قرب الدير، فشل الراهب في تخليصي. لم تكن بحوزته أية أوراق تثبت هويتي. كبلوني ولم يكلموني بعد أن عرفوا بخرسي وخبلي.

قادوني من موقف إلى آخر ومن معسكر إلى آخر وهم

يعلفون بي بلا سؤال. بعد أيام، أتاني ضابط ذو صوت طفولي غير منسجم مع وجهه المكون من شارب فاحم كثّ وبضعة ثقوب أقلّ وضوحاً من النجوم الملتمعة على كتفيه. تحسس بعصاه لحمي وهزّ رأسه إلى (رئيس العرفاء). أدركت أنه أشار بضمي إلى القطيع. في ذات اليوم، أعادوني إلى الجبهة بعد أن رموني في الحمّام وحلقوا شعري وألبسوني بدلة عسكرية مرقمة ثم حشروني في الشاحنة بين الارزاق.

منذ أن وصلت إلى هنا قبل أشهر، وأنا يوماً بعد يوم أرقب بحذر انتفاخ بطن المرأة - التمثال. كنت في أثناء صمتي وخرسي المخبول، أرقب عيون الجنود لأقرأ فيها ما يعبّر عن شكوكهم فيما يخص انتفاخ بطن المرأة. لعلهم كانوا يتحاشون الفضيحة لأنهم كلهم مشتركون فيها مثلي. لا أدري ماذا سيفعلون حينما يأتي اليوم الذي سيصبح فيه من المستحيل إخفاء الأمر، ثم من يعلم أي مولود سيخرج من بطن مجروح بسيف.

ذات ليلة من شهر شباط ١٩٨٨، وبعد مرور تسعة أشهر على وجودي معها، كنت أحدق في البدر المتوهج من فتحة في الجدار خلف رأس المرأة. كنت أشكو لها حيرتي أمام مصيري المجهول بعد أن فشلت جميع محاولات هربي الست. كنت وحيداً بين آثار أسلاف من الزناة، أخرس، أطرش، فاقداً للذاكرة، كنت أهمس لها بصلوات الرجاء لتعينني على الخلاص من عالمي هذا. فلتنقذني إن كانت هي حقاً سيدة وجودي وصانعة حياتي من حلم ارتعاشتها. كيف لي أن أمضي العمر وأنا لا أحمل في دمي غير ذكريات سبعة أعوام من حرب وتيه

بين أهوار وبواد وجبال من أجل فرار من جحيم حاضر نحو عالم سام ومجهول؟ كانت حشود حكمائي ومجانيني تدفع بجسمي نحو التمثال وتشدني إلى أحضان المرأة وكأني أكاد ألتحم بها وأغور في دواخلها. فجأة اهتزت القاعة بانفجارات متتالية امتزجت بأصوات الطائرات وصرخات الجنود. عندما انهار السقف وتعالت من طرف القاعة صرخات الأصحاب ميزت بينهم عريفنا (الملاّ يوسف). في الوقت الذي أخذت فيه الأحجار فوقي بالانهيار، كنت أكور نفسي على صدر المرأة، ورحت بالتدريج انزلق في فجوة أحضانها. انهارت صخور بطنها من جرح ممتد من العنق حتى أسفل البطن، وكُشف نفق عجيب يمتد من جذعها إلى أعماق الأرض خلال الجدار.

أجهل حتى الآن كم من زمن قد مر عليّ وأنا أزحف بين متاهات أنفاق قادتني إلى عوالم وعوالم عشتها خلال آلاف الأعوام. كأني استحلت إلى طاقة من نور، أطوف بين عصور وأوطان وأقوام. مئات المرات وُلدتُ، ومئات الشخصيات عشتُ ومن ثم متُّ. أمضيت حُقباً وحُقباً من تاريخ رعشتها، وكانت هي صانعة حيواتي وحافظة نسلي ومديمة تناسخي في تلافيف حلمها. حتى وجدت نفسي أخرج من بين صخور شواطىء بحيرة (جنيف). ليست معجزة انتقالي وحده ما يثير عجبي، إنما كذلك ادعاء سيدة الحانة أني صاحب مخطوطة هذه الحكاية، وأني نسيتها عندها منذ أيام، وأنها تعرفني من رواد الحانة منذ سبعة أعوام، وأني غريب الأطوار، وأني وأني... ولم أعقل منها كلمة واحدة، لأني بكل بساطة لم أكن هنا أبداً ولم أعرف هذه المدينة إلا منذ أيام، ولقد أمضيت السنوات السبع

السابقة في جبهات الحرب والفرار، بدليل أني لا أتذكر سواها لأني عشتها هي وحدها لا غير.

لكي أجنبكم متاعب شكواي وإسهابي، أعرض عليكم الحكاية، كما وجدتها في المخطوطة، لتحكموا أنتم بأنفسكم.

فصل أول

منذ أعوام، بدأت حكاية الشاب (آدم) مع تلك المرأة العجيبة: (امرأة القارورة).. حكاية ستبدو لكم لا معقولة واندهاشية الى حد بعيد، لكنها رغم ذلك، حقيقية. من الصعب التأكد إن كانت المصادفة البحتة وحدها التي جمعتني بأبطال هذه الحكاية أم هي قوة القدر المتلبس بهيئة مصادفة بريئة؟

قبل أن يلتقي (آدم) بحورية قارورته، قبل هذا الحادث بأكثر من تسعة أعوام. بالضبط في شتاء عام ١٩٧٨، قرر الرحيل عن بلاده ومدينته بغداد. كان عمره قد تجاوز العشرين بعامين. مثل معظم أبناء جيله، كان يعيش وضعاً قلقاً بسبب الأوضاع السياسية المربكة والعنيفة، إضافة إلى فشله في مشاريعه الحياتية، وتفاقم خيباته مع النساء. هذا ما رسّخ قناعاته باستحالة تحقيق أحلامه بالحرية والمجد إلّا خارج الوطن.

يوم رحيله، كان (آدم) مرتبكاً قلقاً بسبب خوفه من حدوث أي طارىء قد يؤدي إلى منع سفره واعتقاله. بعجلة جمع أغراضه في كيس بلاستيكي، وخفية القى نظرة وداع أخيرة على أمه واخوته. قبّل اخته بسريّة لأنها الوحيدة التي كانت تعرف بقرار رحيله.

ما أن شرع في خطوته الأولى نحو الباب، في تلك اللحظة لم يدر أي نداء سحري رجّ بين جدران صدره يدعوه إلى أن يعود أدراجه. كالمجذوب، اتجه مباشرة إلى الغرفة الكبيرة. من تحت سرير والديه أخرج صندوقاً خشبياً عتيقاً يحتوي على بقايا ذكريات أبيه الذي توفي العام الفائت. كانت هناك أكوام ذكريات مُغبرة تختصر حياة رجل هجر أهوار الجنوب وهو فتى في بدايات القرن بعد حكاية غرام خائبة... أتى إلى بغداد ليصبح عسكرياً يخوض الحروب ضد قبائل الوطن المتمردة، حتى هدّه العُمر ليموت على سرير محاطٍ بأبناء وبنات، نظراتهم ذكّرته بزعماء القبائل التي حاربها.

كان (آدم) حائراً، لا يدري عما يبحث. هناك صور شاحبة وخنجر يمني معقوف ومسدس انكليزي وحربة عسكرية على حواشيها دماء صدئة وقطع نقدية من عهود بائدة وأصداف بحرية وتعاويذ دينية ولوحة فطرية تمثل (الإمام علي) محروساً بأسدين، ثم مفاتيح وأقلام وتماثيل أثرية تعود إلى حضارات الوطن المختلفة... هناك وقعت عيناه على القارورة. كانت قارورة جميلة منحوتة من خشب الصاج الأحمر، ذات هيئة متماوجة كجسد أنثى. دون تفكير امتدت يده إلى القارورة. وضعها في الكيس ورحل خارج البلاد.

دون أن أطيل عليكم سرد التفاصيل، ولكي تكونوا على بيّنة بظروف العلاقة بين (آدم) و (امرأة القارورة) هذه، فإنه قبل أن يصل إلى (جنيف) كان قد أمضى أعواماً من الترحال بين مدن الشرق الأوسط وشرق أوروبا. مشاغله أنسته تماماً قارورته القابعة في أعماق حقائب عتيقة وغرف الفنادق الرخيصة

ومخيمات تدريب عسكري وقطارات وغابات وقصور مهجورة. بعد ثلاثة أعوام تنقل بين بلدان وتجارب خائبة، استقر مقام صاحبنا في مدينة (جنيف) الراقدة بين جبال (الألب) وبحيرة متموجة بفضة زرقاء خضراء.

فاتني أن أخبركم أني كنت أعرف (آدم) منذ أن بدأنا معاً ندرك الحياة. لا أعتقد أن ثمة شيئاً في الوجود يحيطه الغموض بالنسبة إلينا مثلما يحيط علاقتنا. ربما سيتاح لكم فهم ذلك في مجرى الحكاية. المهم أننا كنا في وضعية خاصة، نعيش معاً، لكن في فصام دائم وصراع حاد يكاد يصل إلى العنف، لولا قوة مصير جبارة كانت تحتم علينا حباً وتعاوناً. سافرنا معاً، ومعاً خضنا تجربة اغتراب وتفتيش عن حلم. كنا كعنصرين سالب وموجب، باندماجنا نصنع كهرباء وجودنا.

شاءت المصادفة أن أكون سبباً في إنقاذ القارورة. كنا في الباص الراحل من بغداد إلى اسطنبول، وما أن رأى (آدم) رجال الأمن عند الحدود حتى استبد به خوف وأراد أن يرمي القارورة ظاناً أنهم قد يجدون فيها دليلاً ضده ويقتادونه مثل كبش عيد بأيدي حجاج متعجلين. أخرجها من حقيبته وكاد يرميها عند خرائب الحدود. لا أدري أية قوة خفية دفعتني إلى أن أتشبث بها، كما لو كانت بطاقتي الحزبية المحشورة في بطانة سترتي. أمسكت يده المرتجفة وتناولت منه القارورة من دون كلمة ووضعتها في حقيبتي، وتوكّلت على الشيطان. بعد أن اجتزنا الحدود دون مصاعب تُذكر، أخرج (آدم) القارورة، قبّلها وقبلني ثم دمعت عيناه كطفل.

وصلنا إلى (جنيف) صيف ١٩٨١، أوائل اندلاع الحرب.

ثلاثة أعوام عربيدة كنا قد أمضيناها حتى قادنا قطار الزمن إلى هذه المدينة المهذبة. ثلاثة أعوام ترحال بين مدن عدة. اختلفنا أنا وإياه كثيراً وتصارعنا كثيراً، وتحالفنا وتعاونا كثيراً. قد يصح القول إنه كان الفكر والتعقل والخوف والانطواء، وأنا كنت الروح والشهوة والتهور والاندفاع. للخلاص من منفى وطن اخترنا أوطان منفى، بعد أن غدت حياتنا كقطار سريع يفرض عليك التعرف إلى أناس والمرور بمُدن وتعلم لغات جديدة وأسماء مزيفة وأفكار وأحلام وثورات وانتكاسات، مندفعين إلى الأمام بلا عودة إطلاقاً. تعلمنا لغة السلاح، خططنا لثورات خائبة، تشردنا وجعنا وسرقنا وسُجنا، أمضينا ليالي في قطارات وبيوت مهجورة ونحن نحلم بسجن نظيف لعله سينقذنا من الموت برداً في حدائق أوروبا؛ حتى استقر بنا المقام هنا.

قبل أن تظهر لنا (امرأة القارورة) وتفتننا بخوارقها وعجائبها، كان (آدم) يمضي حياة هادئة في شقة صغيرة مع زوجته (مارلين)، فتاة وديعة من بنات هذه المدينة. كنت أنا الشخص الوحيد من أبناء بلده الذي يلتقي به، وبين فترات متباعدة. هنا، تعاظمت الشقّة بيننا، تفاقمت انطوائيته وانقطاعه عن كل ما يمت إلى الوطن بصلة. أما أنا الآخر، فقد تفاقم عبثي وتعاظمت شهواتي لكل ما هو ممنوع ومحرم في حياتي السابقة وحيوات حتى أسلافي. كنت أنا دائماً ذلك المراهق الطائش والشهواني العربيد المتشبث بتلابيب الحاضر حتى يردَّ إلى أضعاف وأضعاف ما اغتصبه مني في الماضي. انغمست بعنفوان قياسي في عوالم من نساء وخمرة وحشيش ورقص

حتى الفجر. جربتُ كل المحرمات ومبدئي أن أفعل كل ما أشتهيه ما دام لا يؤذي الآخر. أما (آدم) فلقد هرمت روحه أكثر فأكثر وصار ذلك الشيخ العاقل بعد يأسه من حلم نبوّته وثورته الفاضلة، فوجد في عوالم حاسوبه (الكومبيوتر) تعويضاً عن فلسفات التغيير ونظريات تعقيم الشعوب، ووجد في حنان زوجته ما يعوضه عن دفء أحضان القضية. كان يحلو لي أحياناً أن أمزح معه بوصف معضلتنا بأننا كنا سمكتين بلون أحمر انحدر بنا الزمن إلى نهر ماؤه أصفر وسمكه أصفر. أنا أحاول البقاء أحمر وهو يحاول أن يستحيل إلى أصفر، بينما الواقع يفرض اكتسابنا لوناً برتقالياً ينتج عن امتزاج الأحمر والأصفر. إننا كما يقول الروس، خرجنا من الريف ولم نصل إلى المدينة. يراودني اعتقاد أن (آدم) صـار مثل معظم الأخلاقيين والمحافظين، يستغنون عن الشيء ويتجنبونه، لا لأنهم يمقتونه أو يرفضونه، بل لأنهم يئسوا من امتلاكـه والسيطرة عليه.

حدث يوماً، وأعتقد في شتاء ١٩٨٨، أن هبط (آدم) إلى القبو ليجلب أدوات التزحلق على الجليد ليمارس رياضته المعهودة مع زوجته. في أثناء نبشه الأغراض المتراكمة في الزحمة، لمح القارورة. كانت مركونة في زاوية متخنة بعتمة ورطوبة وخيوط عنكبوت، متكئة على حائط كأنها تستريح من انتظار. رغم عجلته وانتظار زوجته، فإن رعشة تأنيب ضمير سرت ببدنه واشتعلت في قلبه جمرات حنين إلى ماضيه. تذكر موت أبيه وحاجياته العتيقة. تخيّل مشهد أمه وحيدة في دار خوت من أبناء وبنات. الذين لم يخطفهم الـزواج والقبر والمنفى، فإن الحرب قد أتت وأتمت خطف الباقين. أعوام

تسعة مضت على فراقهم، صورهم امتزجت بصور حرب كان يتحاشى حتى الإنصات لأخبارها. سبعة أعوام الحرب قد فاقمت في ذاكرته شحوب صورة الوطن وقتامته. لم يرث من تاريخه غير الخوف . أو ما تعلمه في حياته هو الخوف. في طفولته، كان يمضي ليالي أرق خوفاً من الموت، أن ينام ولا يستيقظ. كان يخاف جهنم بعد أن وصف أبوه أنواع عذابها التي تجعل حتى (شعر الأصلع ينبت ويقف)، علقت بذلك أمه وهي تشير إلى رأس أبيه. وكان في حقيقته يتمنى الموت مبكراً. لأنهم قالوا إن الله يغفر ذنوب الطفل حتى سن السادسة. طريقه مضمون إلى الجنة. منذ ذلك اليوم تعرف أحدنا إلى الآخر، هكذا كأننا توأمان في بدن واحد. هو عاشق للموت من أجل نسيان بؤس الحياة ولبلوغ الجنة، وأنا من أجل نسيان الموت كنت أخلق لذة الجنة في لحظات الحياة. كنا عندما يحلّ المساء، نحن أطفال أحياء الطين المنتثرة كجدري في جسد بغداد، بعد أن نكون قد أمضينا نهارنا في قتل عصافير وكلاب وقطط، وتعاركنا بحجارة، وغرق أحدنا في مستنقع أو في نهر دجلة القريب، وسرقنا وتمرغنا بالأتربة وتعفرت أجسامنا بخدوش وجروح وأمراض، وتعلمنا شتائم فاحشة جديدة أثناء ممارستنا لـ«براءتنا» بحرق قوافل نمل؛ في عتمة المساء نهرب إلى بيوتنا، لتستقبلنا (أحضان) أمهاتنا بصفعات وأعقاب نعال بلاستيكية مصحوبة بلعنات ومشاجرات بين الجيران والاستغاثة بسلطة الله وأب جبار. في الليل نغفو في عراء على رؤى سماء تتوهج بأقمار ونجوم شبيهة بعيون الحيوانات التي قتلناها، نغفو ولم تزل ملتهبة عنيفة ذكريات نهارنا وحكايات أمهاتنا عن سعلوات وطناطل وكائنات ممسوخة

وجنٌ قاطنين في طبقات أرض سفلى، يخرجون لنا متنكرين بهيئات قطط وأشباه بشر. كم من ليال أمضيناها مختنقين تحت أغطيتنا خوفاً من (عزرائيل) ملاك الموت ومن جهنم؛ وفي الصباح نستيقظ مبللين بعار ورعب عقاب منتظر.

امتدت كف (آدم) إلى القارورة، وراحت أصابعه تمسدها وتمسح عنها الغبار. تساءل من أين حصل عليها أبوه: أورثها عن أهله أم اشتراها أم غنمها في حرب.. من يعلم؟ فكر في السّر الذي جعله يجلب هذه القارورة ويحملها معه عبر جميع تلك الأعوام والمدن. ترددت يداه لتناولها. خشي أنها ستكون عذراً للآخرين لأن يسألوه عن بلاده. الماضي يرعبه. كان مثل سجين هارب يتحاشى لقاء سجانه. لكنني أعرف جيداً أن (آدم) مثلي، لم يمر أسبوع دون أن يعيش كابوس عودة مرعباً: حلم خانق، يجد فيه نفسه قد عاد إلى الوطن.. لا يعرف كيف حدث هذا. إنه بلا أوراق شرعية، والجميع يطاردونه، حتى عائلته تتجنبه لأنه سيجلب لها الدمار. لحظات من كابوس تعادل في عذاباتها ورعبها ساعات يقظة.. دماء وخوف وعيون جاحظة وحواجز عسكرية وضياع وسؤال صارخ: كيف عدتُ وكيف أهرب مرة أخرى!؟ كابوس جميع من في المنفى. نجحنا في الهرب من سجن الماضي، ولم ننجح في جعله يهرب منا، يصرخ فينا ساعات صحونا، ويستولي علينا ويحبسنا في زنازينه ساعات نومنا.

مهما فكرت يصعب عليّ تحديد الفوارق بيني وبين (آدم). لم يكن تناقضنا وحده هو الفارق بيننا، إنما لأن في كل منا تناقضات تجمعنا وتشتتنا في نفس الوقت، أشبه بجيوش مهزومة قد ضاعت فيها الأمجاد والمراتب. يحدث أحياناً اني

أنعت (آدم) بأوصاف أجهل أني أحملها أيضاً. من الصعب تكوين رأي بخصوص بعض الفوارق الحياتية الواضحة بيني وبينه. كان يكافح سجنه بنسيانه وتجنب كل ما من شأنه أن يذكره به، وخصوصاً أبناء وطنه، وأنا كنت أراوغ سجني بالاقتراب منه واللعب مع الماضي والسخرية منه ومن كل ما يذكرني به.

منذ أن وصلنا إلى (جنيف) اختار الزواج والاستقرار والعزلة وتكريس كل شيء من أجل المستقبل. أتقن اللغة وتعلم إدارة الحاسوبات واشتغل. يحلو له أحياناً أن يهمهم أمامي بعبارة مكررة: «ماضيّ عصيّ وشاحب كالدغل، كلما اقتلعته، رغماً عني ينبت في حديقة حاضري!». ولا أدري إن كان يعتبرني أنا أيضاً من بين ذاك الدغل.

على أي حال، بينما هو في القبو أمام القارورة، انتبه إلى أصابعه تتلمس حافة غطاء قابل للتحريك. لم يكن يخطر في باله أن للقارورة جوفاً وغطاء. حركه وأداره حتى تراخى وأخذ يرتفع. انتابه إحساس غامض من الرهبة كأنه مقبل على لقاء عزيز ينتظره منذ أعوام. كان في لهفة بدائية لاكتشاف جوفها. قال إنه سيحولها إلى مزهرية تتدلى منها وردتان، واحدة بيضاء كحليب، وأخرى حمراء كشهوة.

فجأة، اندفع الغطاء بقوّة خارج القارورة. نفذت أولاً رائحة بشرية مألوفة، تشبه مزيج تعرق وعطر... ثم «بش... ش.. ش..» واهتزت القارورة. خرج منها شيء ضبابي مصحوباً بصفير خافت وحزين. غاب عنه بصره، وتراجع. تحاشى سقطة، وتداعى على صندوق كارتوني انفطس به وحشره بين

الأغراض. قبل أن تتضح له الرؤية، سمع صوتاً إنسانياً كهمس في حلم، بثّ فيه قشعريرة وأفقده قواه على النهوض:

- سيدي.. لا تخف.. أني لك.. ولأجلك.. جسدي لجسدك وروحي لروحك.. ملذّات قرون ماضية أمنحها لك...

تدريجياً، مع همس أنثوي ناضح بغنج ورجاء، انبجس مشهد حلمي وتكشف: أنثى بجسد عار وشعر منثور وقامة باسقة كنخلة في صحراء؛ خصيلات ليلكية متوهجة تجري سواقي على نهدين وحلمتين نديتين. دهشته عقدت لسانه وجمدت تفكيره، لكنه ما فقد قدرته على إدراك الجمال. خصرها ووركها كانا كأساً بلوريّة ترسبت في قعرها قطرات نبيذ حمراء. فخذاها كانا طويلين بضين مخضبين بحمرة مداعبات شرسة. رغم العتمة، فإن (آدم) أبصر بوضوح شفتين رطبتين كشريحتي بطيخ أحمر؛ وعينين مسبلتين برمشين كثين أسودين، يحميهما حاجبان على هيئة سيفين معقوفين.

من يرى (آدم) في تلك الساعة سيتعرف بسهولة إلى ملامح غريبة ارتسمت على وجهه: حالة من يعيش خوفاً وشهوة في ذات الوقت.. كذئب يلتهم فريسته وعيناه على طلقة صياد قادمة. لكن خوف (آدم) لم يكن من موت بل من خطيئة. تسمر في حسرته. روحه استحالت إلى حلبة صراع همجي بين خوفه أن تنمسخ هذه المرأة الخرافية إلى أفعى تلتف عليه لتقصمه وتدنس بسمومها دماءه، وبين شهوته المتصاعدة لالتهام هذا الجمال الذي تجاوز أشد الأحلام إغواءً.

اطمأن قلبه قليلاً وهو يراها تتحرك مثل بشر وتتضح بهيئة

حورية في لوحة عارية من عصر النهضة: فتحت عينيها ورسمت ابتسامة طفولية ثم أمالت رأسها بغنج وأسبلت كفاً بين فخذيها وغطت بذراع نهديها. كانت قديسة حين تسبل رمشيها وتستحي، أما حين تفتح عينيها لتلتهم ما حولها فإنها ملكة داعرة. هيئتها العجيبة جعلت (آدم) يسترجع صورة الحورية التي رسمها في خياله مع حكايات طفولته. أبوه كان يحكي عن جنة عرضها السماوات والأرض، فيها أنهار عسل وخمر ولبن، لكل مؤمن قصر فيه أربعون غرفة، وكل غرفة فيها أربعون سرير، وعلى كل سرير هناك أربعون حورية، وكل حورية من شدة جمالها وشفافيتها فإن الماء يبان وهو ينساب في بلعومها. أمضى عمره وهو يحلم بهذه الحورية لتمنحه لذة إحساس بالمطلق.

راح (آدم) يتفحص بدنه والأشياء حوله، ليتيقن من حقيقة وجوده وعدم غوصه في وهم. فتح فمه وأصغى إلى صوته، انطلق كعياط مكتوم في كابوس خانق:

ـ من أنتِ؟

جاءه صوته نشازاً كأنه يسمعه عبر مذياع. عكس المتوقع، فإنه حقيقة، لم يكن ينتظر جوابها، بل انه أحس بنوع من الأسف، لعل صوته سيكون سبباً في اختفائها. وتعززت شكوكه بواقعية ما يحدث أمامه، عندما رآها ترمقه بعينين خمريتين، وتفتح شفتيها وتتكلم بصوت ذي نبرات حلوة كضحكات طفل، وحادة ذات رنين كقعقعة سيوف:

ـ أنا يا سيدي منذورة لك ولذريتك. أسلافك جميعهم

أمضوا شطراً من حياتهم معي... كنت عشيقتهم السرية ورفيقتهم في ملذاتهم وانتصاراتهم، وفي متاهاتهم ونكباتهم وساعات احتضارهم. آخر رجالي كان أباك، ورثني عن أبيه وأسلافه.. منذ قرون لا تُحصى وأنا أمضي خلودي في هذه القارورة، يتوارثني أبناء عن آباء. من يمتلك قارورتي يمتلك أسرار روحي وجسدي...

ظلَّ (آدم) مبهوتاً، وقد تدلى لسانه في فم فاغر. كل شيء كان يمكن أن يخطر على باله إلا هذا... امرأة خالدة الشباب والجمال طوع أمره ولإرضاء ملذاته! الآن فقط قد رأى بأم عينيه حورية أحلامه التي استقرت في أعماق طفولته. كان (آدم) عكسي، توقه إلى الموت يمتزج بلذة خلود روحه في الجمال المطلق، وأنا خوفي من الموت يذوب في ارتعاشات الجسد وملذات الحياة. كم مرة منعته من الانتحار ليتخلص من جسده الفاني وليطلق عنان روحه نحو أعالي كون متسامٍ عن وضاعة الدنيا ودونيتها؛ وكم مرة منعني (آدم) من ارتكاب خطايا تبتغي الانتقام من المسؤولين عن بؤسي. لعله الآن قد وجد في (مارلين) المرأة التي تحمل في شخصيتها ذلك الشغف العظيم إلى الجمال المقدس: بتواضعها ورقتها وصفاء روحها وجد بعضاً من توقه إلى حنان الأم وشفقتها. في ملامحها الطفولية وعينيها الخضراوين المندهشتين وجد صورة (ايمان) إذ لا تزال جذور حبه الخائب حية في تربة أعماقه. في ذكائها وفضولها للمعرفة والبحث وجد فيها رفيقاً أنيساً يشاركه في لعبة السؤال والجواب السرمدية. خصال زوجته هذه كانت كافية لكي يعشقها ويخلص لها، لكنه ظلَّ أبداً يحس بحرقة نيران التوق إلى (سجينة) رأسه، منذ عشرين عاماً

وهي تقطن روحه، منذ أن فارقته لتدفن حيَّة، لبثت غامضة تقضّ مضجعه وتسبب له كآبة وبرودة مشاعر إزاء جميع النساء.

استطردت المرأة بعد أن وجدت منه الصمت:

ـ تمهل واسترح... هاك تلمَّسني وتيَّقن مني. إني بأجمعي لك فلا تخشني. دعني أدنو منك لأمسح عنك غبار العمر بحكاياتي عن أسلافك. هم كانوا ماضيّ، وأنت الآن حاضري، وذريّتك مستقبلي.. ديمومة نسلكم سرّ خلودي و...

انقطع كلامها بصوت (مارلين). كانت تهبط درجات القبو وتنادي على (آدم) أن يستعجل قبل فوات موعد القطار. تلبّك في حيرته وكاد يصرخ بزوجته أن تأتيه لتشاركه المعجزة، إلّا أن المرأة ارتمت عليه بسرعة مستغيثة به هامسة أن لا يفضحها، حياتها له وحده وكشفها للآخرين يعني نهايتها. قالت إنها ستعود إلى قارورتها حالاً، وعندما ينوي لقاءها يكفيه أن يفتح غطاء القارورة فتخرج له. ثم أغمضت عينيها وكورت نفسها حول القارورة كأفعى في لهيب. طفق جسدها يتلوى ويهتز ويتمطى ويتقلص، ثم غابت في القارورة كزوبعة ابتلعتها صحراء في حلم صامت.

طبعاً، أنتم تتوقعون ما يمكن أن يقوم به صاحبنا. في اليوم نفسه وصل مع زوجته إلى قرية (ناندا العليا) الراقدة بين قمم الألب المثلجة. بعد منتصف الليل، تسلل تاركاً إياها نائمة في غرفتهما في المنزل الجبلي. حمل حقيبتـه الصغيرة حيث تختبىء القارورة، ووضع تحت إبطه سكينة مطبخ، تحسباً

للمفاجآت السيئة. مضى خارج القرية يطبش بين ثلوج ذاب بعضها بأشعة شمس عابرة. بلغ باحة مرتفعة ينتصب في وسطها عمود بث تلفزيوني. كانت باحة مفتوحة وآمنة ونظيفة ومتنعمة بنور تتخلله التماعات حمراء قادمة من قمة العمود.

أخرج القارورة من حقيبته ووضعها على حافة السياج الإسمنتي المطل على واد سهلي. اختار هذه النقطة ليسهل عليه عند الخطر دفع المرأة من الحافة لتسقط في أعماق الهاوية. كانت السكين بيده بينما أصابعه تجهد لفتح الغطاء. عادت إلى قلبه ارتعاشات اللذّة باللقاء المرتقب، والرعب من أن مارداً جباراً قد ينبثق ويمسك به من شعره ويرميه كحجر في أعالي الفضاء.

انفتح الغطاء، ونفذت إلى أنفه رائحة انثوية مألوفة، واندفع ضجيج خافت. تراجع (آدم) بعيداً عن السياج وقبضته تشتد على السكين ثم، هكذا، عارية متوهجة وقفت أمامه من جديد. كما لو أن يداً إلهية خفية متمرسة بنحت الثلج والظلام قد امتدت وصنعت تلك المرأة العجيبة! هيئتها وصوتها بثا تراخياً في قبضته... لأول مرة في حياته، تدمع عيناه، ليس حزناً ولا فرحاً، بل انبهاراً.

ـ د.. ثر.. ني... الثلج يؤذيني..

عندما أدرك أن نبرات الصدق في صوتها موشاة بنغمات مريبة مغرية، تفاقم تردد مشاعره بين شيمة شجعان وحذر مخدوعين. في أثناء ارتجافها كانت المرأة تقترب منه منسابة على أطراف قدمين حافيتين، جاعلة الحصى الناعم يصدر

صوتاً كحفيف حيوان زاحف. راحت بهدوء تلقي بذراعيها على كتفيه، واضعة قدميها على حذاءيه حتى التصقت به. آنذاك فقط، خضع (آدم) لشيمته وخلع سترته الجلدية ودثرها بها. أحسّ بعريها عندما امتدت كفـاه دون قصد إلى ردفيها. لم تنتابه رعشة لذّة بل رعشة ترقب وتساؤل، كصانع مبتدىء يتفحص بضاعته. كان ينصت لأنفاسها المتقطعة ويتساءل إن كانت أنفاس برد أم شهوة. عبقت في أنفه رائحة شعرها خليطاً من حناء وأنواع عطور شعبية شائعة لدى ريفيات الوطن. لعن في سرّه نساء بلاده. راودته أحاسيس هي مزيج من ضغينة وأخوة، تنتابه في كل مرة يلتقي بامرأة قادمة من الوطن أو من البلاد العربية.

لعلي أفضح لكم سراً: إن (آدم) حتى رحيله من الوطن لم يتمكن من أن يضاجع ولا مرة واحدة طيلة حياته. السبب ليس له أية علاقة بقدرته الجنسية. إنه يعود إلى سبب غامض ومجهول، من الصعب التكهن به. مرة وحيدة حاول بها حقاً، كانت قبيل هجرتنا. في الصيف، بعد إلحاح أقنعته أن يرافقني بسفرة إلى البصرة. هناك اصطحبته إلى أطراف المدينة، حيث تنتشر بيوت غجر طينية في (حي الطرب). بعد دقائق من انزوائه مع واحدة، قفل راجعاً إلي وهو يبصق ويلعن. لم يحتمل مشهد عُريّ البغي، ولم يفعل شيئاً. أعاد على مسامعي نظرياته عن جسد طاهر وحب مقدس وأن الجنس يجب أن لا يقترن برذيلة مال وقوانين سوق، وأن روحه في هذا الوضع تنفر من فعله وتتقزز من جسده وتجعله خامداً بلا شهوة ولا قدرة. بسببه ضاعت تلك السفرة هباءً. من خيبتي به فقدت أنا أيضاً شهوتي

ورجعت معه. حتى يوم تركنا الوطن، قام بمحاولات عديدة فاشلة لإقامة علاقة طبيعية مع امرأة. كم مرة دفعته إلى مغازلة زميلة في العمل أو رفيقة في التنظيم، إلا أنه كان يأبى. رغم إيمانه بأفكار الحرية فقد ظل دائماً ذلك النبي الطامح إلى الصفاء في كفاح وإخلاص عذري للمبدأ. كان يتفادى كل ما كان يعتقده إساءة إلى سمعة القضية ولو مجرد علاقة حب مع رفيقة. ظلَّ بكراً حتى وصل إلى أوروبا. الأعوام الثلاثة التي أمضيناها في الترحال كانت أعوام حرمان أسود حوَّلته إلى متصوف ثوري لا يضاجع من الوجود غير نظريات حرب العصابات وصراع الطبقات وبناء المجتمع الفاضل. هنا في أوروبا، وقبل أن يلتقي بزوجته صادف بضع مغامرات سريعة مع نساء من مختلف الأوطان ليست بينهن أية امرأة من بلادنا. يئس من تكرار محاولاته لتذوق جسد إحداهن. جميع اللواتي التقى بهن كنَّ، رغم شغفهن به وتعلقهن بمصاحبته، يمانعن في ممارسة الحب معه. ليست العفة وحدها كانت سبب تمنعهن، الكثيرات منهن لم يتمنعن مع غيره لا من قبل ولا من بعد، لكن معه ثمة مانعاً مجهولاً حتى هن كن يستغربن تأثيره الخفي.

- خبِّرني أين نحن. لما ودعني أبوك كانت هناك شمس غاربة وشتاء يطرق أبواباً. منذ قرون ما شفت مثل هذا الثلج.

صار همسها أكثر إلفة واختلطت فيه نبرة غنج وفتنة ذلك النوع من النساء اللواتي يفرضن هيمنتهن على الرجال بإظهار ضعفهن وحاجتهن إلى الحماية. شفتاها كانتا تلامسان إذن (آدم) بأنفاس همسها، فتسربت قشعريرة خدر طفولي لذيذ ذكرته بلمسات أصابع أمه وهي تفلي شعره، ثم انسابت

القشعريرة في لحمه وتركزت أسفل بطنه. أتساءل أحياناً إن كان تعلق (آدم) بعالم حورية حلمه ليس سوى تبرير لحتمية موت، ومكافحة رعب فناء، وإضفاء جمال على قُبح غياب. في انتظار النهاية كان يمضي عمره في بحث عما يعوضه مؤقتاً عن جمال الآخرة. لقد يئس من حُب أمّه التي كانت كراعية لقطيع من أبناء وبنات، ليست مهمتها أن تمنح الحُب إنما أن تعلف وتوفر حداً ممكناً من الحياة؛ ويئس بعد أن فارقتنا (السجينة) ودفنوها حية؛ ثم ملَّ من انتظار (إيمان) بعد حبٍّ بائس من طرف واحد دام بضع سنوات. أمضى أعوامه يمني نفسه بانتظار مجهول مطلق سينقذه من بؤسه. في أعوام شغفه بـ (إيمان) تملّكه وهم أنه سيكون نبياً. أمضى لياليه مترقباً هبوط الملاك (جبرائيل) برسالة النبوة من السماء. أراد أن يصير ككل الأنبياء، مخلصاً ومنذراً بالكارثة. أليس الأنبياء ما هم إلا منذرون بكارثة ومبشرون بخلاص؟ إدراكهم لرعب الموت والفناء يقرّبهم إلى قوة مطلقة. كل منهم يدعو إلى مشروعه الخاص بتهيئة الناس لمواجهة مصير محتم. في فتوته، توقه إلى النبوة تلبس شكل (سوبرمان)، قراءته الحكايات المصورة جعلته لأعوام طويلة ينتظر هبوط القوى الجبارة من حطام كوكب أسلافه المجهول، لتمنحه القدرة على إصلاح العالم وخلق الانسجام المطلق. مع بروز زغب شاربيه برزت فيه رغبات التغيير من خلال السياسة. ارتدى نبي روحه ثياب ثائر عصري. إني أغيظ (آدم) أحياناً، عندما أقول إن التنظيم كان له أمّاً وحورية حُرم منها، والدولة كانت رباً وأباً عانى من سلطته وجبروته. اختار تنظيماً ثورياً، لينتقم لسنوات حرمانه وجفاف حياته. غرق في تصوف حُب الجماعة والتضحية بالحياة من

أجل حرية وسعادة وأنوثة ولذّة مطلقة: آلهة الرحمة صارت تنظيماً، والمؤمنون صاروا كادحين، والجبار صار دولة، والشياطين صاروا برجوازيين، أما جنته حوريته فقد صارت مدينة حُب ومساواة.

الحقيقة أني عندما انضممت معه، لم أكن أختلف عنه في جميع هذه الأمور إلا بأني كنت أبتغي ممارسة تمردي على واقع بائس، ومن أجل تمتعي بإيذاء ـ كلاماً وممارسة ـ رجال أقوياء يخصون فيّ فحولتي ويغتصبون حريتي بقوانينهم وأخلاقهم وأكاذيبهم وسجونهم. هو كان يناضل ليفني حياته من أجل الثورة، ويقول إنه سيبقى خالداً في ذاكرة الشعب. أما أنا فكنت أناضل لأنتزع حياتي وأغتصب لها وهم انعتاقي. إني ضد الحاضر من أجل الحاضر، و (آدم) كعادته ضد الحاضر والماضي من أجل مستقبل بعيد بعيد حتى يبلغ آخرته وجنة حورياته الخالدة.

كأنه أراد أن يكافح مشاعر خجل وتأنيب ضمير أحسها دون سبب واضح. خاطبها بصوت مبحوح نابض بلوم واعتذار:

ـ أنتِ... أرجوك خبّريني من أنتِ!؟

روحه المتصوفة التائقة الى التسامي، كانت تحوم مرفرفة كحمامة تسللت أفعى إلى عشها. هكذا هو (آدم) منذ أن وعينا الحياة، كانت الخطيئة بالنسبة إليه رديفاً للشهوة، أما أنا فخطيئتي إن لم أرض شهوتي. كم هي عميقة في ذاكرته ليال كان يصحو فيها وهو طفل مرتعب من أنين أمه وفحيح أبيه. مرت أعوام حتى أدرك أن أباه لم يكن يؤذيها بل يمنحها لذّة.

في عمر العاشرة وقعنا في هوى تلك (السجينة) التي ما فارقت صورتها روحينا، وظلّت كغيمة خالدة في سماوات جميع تجارب عشقنا. قبل عمر المراهقة وقع في حبّ (إيمان)، صبية موصلية شقراء لها وجه يشبه تفاحة مطعّمة بعنبتين وحبّة رمان. قرر أن يحبها حتى الموت مباشرة بعد خروجه من فيلم هندي عن حبيبين، غنية وفقير، ماتا حزناً على فراش الحب. خلال أعوام، لبث في أعماقه لا يصدق أن الأنثى يمكن أن ترتكب خطيئةً أَنْ تصير عادية مثل البشر. إنها رمز الطهر والسمو عن عاديات الحياة وشهوات الجسد وحاجاته المتدنية. حتى بعد أن اكتشف الجنس ظلت تراوده تنهدات والديه ممتزجة بصرخات (السجينة). صارت الخطيئة جزءاً حيوياً من لذته. عاماً بعد عام كان صراعنا يشتد ومسافة خلافنا تتسع. كان يؤنبني بعنف ويسخر مني كلما ضبطني أمارس لذتي على خيال خادمة الجيران. رغم ذلك فإن حساً مشتركاً ظلّ يجمعنا: ذلك الشغف الأعظم بالجمال. هو، كان شغفه يحلّق في الأعالي، في الروح السامية. أما أنا فشغفي يكمن في الأرض، في أحشاء الخليقة وثنايا الشهوة، في تجسدها ونكهتها وفرقعة نيران احتراقها.

ساد صمت لوقت بدا طويلاً. كان صمت ثلوج مطبقاً، حيث تتدثر الحياة في أعماق الأرض. اتكأت المرأة على السياج ورفعت وجهها إلى السماء، فحطّ بدر في حدقتيها. كان بدراً أبيض ينضح بقطرات حليب. لم ينتبه (آدم) للحظة انطلاق صوتها. كان جزءاً من صمت الجبل. خُيّل إليه أن همسها ينبعث من غابات وبيوت القرية وقمم الجبال. انتشر صدى كلماتها في الوادي وأضفى انبهاراً سحرياً على ليل مدينة

(سيون) السابحة في شذرات مصابيح متوهجة في أرجاء السهل. راحت تحكي له عن عشاقها من أسلافه: ملوك وقطّاع طرق وقادة جيوش وأمراء فاسقون وخونة وجلادون وأنبياء وفلاحون وعشاق وشعراء وخصيان ومرتـزقة. حـدثته عن أمجادهم وهزائمهم، عن محاسنهم ومساوئهم. منـذ آلاف الأعوام يتوارثونها ابناً عن أب، عاشروها وتنعموا بخلود اللذة في جسدها وروحها. حكت وحكت له حتى الفجر. كانت كلماتها تدخل في أعماقه وتحمل ذرات كينونته لتسمو به إلى أقاصي الكون، تجتاز حدود المكان والزمان، تمرّ به عبر عصور التاريخ، تنسخ روحه في أبدان الأسلاف وتنقله بين شعوب وأوطان وتجارب وذكريات ما زالت آثارها تحيا في كل ذرة من دمه وروحه.

فصل ثان

لو أصغيتم إلى جميع حكاياتها لما كفاكم العمر. عوالم تنبجس من عوالم، تواريخ تقود إلى تواريخ، بلا نهاية.

حكت أنها كانت فتاة طبيعية مثل باقي البشر. اسمها (هاجر) وكانت تعيش بين شعبها في مملكة قديمة من أرض الجنوب تسمى «أور»، في حقبة أعقبت الطوفان الكبير الذي أغرق الأرض جمعاء. كان أبوها أميراً من سلالة الملك المقدسة. أمضى حياته في محاربة قبائل الغزاة القادمة من جبال الحدود الشرقية والشمالية. أما أمّها فكانت ابنة أمير إحدى موجات القبائل البدوية القادمة من الصحراء الغربية. منذ حقب طويلة قد استوطنوا أرض الجنوب وانصهروا بشعب الأهوار واشتركوا في ديمومة المملكة.

شاءت الظروف أن يقع في حبها (تموزي) ملك دولتهم ويهيم بها رغم امتلاكه العديد من النساء والجواري. تزوجها وتولع بها وصار يغار عليها من أيّ بشر آخر، حتى من نساء وحاشية قصره. أسكنها وحدها في قصر منعزل بين الأهوار، لا يتصل بها إلابعضخادماتها. وصل العشق بهذا الملك أنه منعها من الاحتفاظ بولدها الذي أنجبته منه، وأرسله الى قصره الرسمي

ليعيش هناك بعيداً عن أمّه. كان يقول لها إنه لا يحتمل أن يراها مثل باقي النساء، تلد وتعتني بالطفل وترضعه، ويترهل جسمها، ويرسم العمر خطوطه على وجهها. يريدها خالدة الشباب والجمال، ومنبعاً أبدياً للشهوة الطبيعية، محصنة من تشوهات الحياة وحماقات العُمر.. يريدها له وحده لا يشاركه بها حتى الزمن.

كان هو الوحيد الذي يلتقيها. يمضي الوقت باحتساء (العَرَق) معها بينما أنغام قيثار سومري تصدح في أرجاء القصر. كان يغيب في عوالم صوتها وهي تنشد أغاني الصحراء التي تعلمتها من أمها. يتمعن في جمالها، ويتمرغ بجسدها، ويذوب في النشوة إلى حد التعبد والتصوف وذرف دموع الوَجد. كان يكلمها متضرعاً بين أحضانها: «ليتني نبي طوفان وأنتِ سفينتي.. ليتني كَلكَامش وأنتِ حلم خلودي.. ليتني معبد أكبر وأنتِ إلهي.. إني فناء وأنتِ ابدية».

أخذ رعبه يتفاقم من فكرة أن معبودته ستهرم يوماً، تفقد نضارة شبابها، ويخطفها الموت إلى عوالمه السفلية المظلمة. قرر أن يدعو جميع سحرة وحكماء مملكته والممالك المجاورة. تعهد بمنح نصف ثرواته لمن يجد إكسير الخلود لمعشوقته، ويحميها من آثار الزمن.

خلال أعوام من العروض والتجارب، فشل جميع السحرة والحكماء في العثور على سرّ الأبدية. هيمن اليأس على الجميع، وكاد شيطان الحزن أن يسيطر على روح (تموزي) لولا أن أعلن أحد الحكماء نصيحته الأخيرة: «على جلالته أن يرحل بنفسه، يتوغل في أعماق الصحراء، يبحث ويتصل بالشيوخ

والحكماء المنعزلين في الواحات وكهوف الجبال الصخرية، لعله هناك يحصل على ما يبتغي».

رحل الملك بجيش من خيرة فرسانه، بعد أن وكّل وزيره وصديقه إدارة المملكة. اصطحب معه معبودته (هاجر) ومعها كل ما يوفر لها الرغد والراحة ويقيها لهيب الصحراء وجفافها. ظلوا يجولون البوادي، يتوغلون في الأعماق، يتصلون بقبائل البدو، يستشيرون النسّاك وحكماء الصحراء. كل حكيم كان ينصحهم بالاتصال بالحكيم فلان القاطن في الواحة الفلانية أو الهضبة الفلانية على بعد مسيرة كذا يوم أو أسبوع.

كاد يغلبهم اليأس بعد عامين من التجوال دون جدوى. حتى أتى يوم التقوا شيخاً يقطن مغارة عميقة في جبل صخري أحمر. كانت تشع منه هيبة أنبياء، طويل القامة، أسمر البشرة، جبهته عريضة بارزة وأنفه طويل ناتىء، عيناه كحيلتان متوهجتان بخمرة إيمان، لحيته بيضاء، وشعر رأسه أبيض، تغطيه طاقية بيضاء، على كتفيه عباءة سوداء فوق ثوب فضفاض أبيض. تقدم منه الملك وحدَّثه عن بحثه الشاق. دون أن ينبس بكلمة، نظر إلى الملك وكأنه يقول له امنحني ثقتك وكفى. أشار إلى (هاجر) أن تتقدم منه ثم أمسكها من معصمها وتوغل بها في أعماق مظلمة، وغابا عن عيني الملك المترقبتين المندهشتين. بعد مسيرة وقت طويل في ممرات عتمة وجدت نفسها في باحة واسعة، أرضها من عشب أخضر فضي. الناظر إلى الأعلى يشاهد فتحة في وسط قبة عالية جداً، كأنها سماء يهبط منها شلال من شعاع شمسي وماء. ظل الشيخ واقفاً عند العتبة ويلقي بإشارات صامتة إلى المرأة. أطاعته بخشوع،

تعرت ووطأت أرض الباحة. تقدمت من الشلال المتساقط في قارورة صغيرة موضوعة على الأرض. رفعت القارورة وضمتها إلى صدرها ووقفت محلها تحت النور والماء. نظرت حولها وانتبهت لأول مرة. عبر الشلال شاهدت جدراناً مبنية من حشود خيول جامحة، حمراء سوداء بيضاء، صفوف فوق صفوف تشكل بناء ثابتاً. رغم جموح داخلي؛ تركض متجهة إلى السماء، إلى الفتحة لترتوي من نبع النور والمـاء. رفعت القارورة، وأغمضت عينيها، وراحت تشرب وهي تنصت لصهيل خيول متناغم كنشيد وحشي يصدح بالارتواء. انتابها احساس غريب لم تعرفه من قبل. لأول مرة في حياتها تحس حقاً بوجود جميع مكونات جسمها: دمها وقلبها ورأسها وباقي أعضائها. تدرك وتتحكم بكل حركة تقوم بها كما لو كانت أصابعها. أحست أنها بذاتها تسبح في داخل جسمها، كانت تعوم مع مجرى دماء هابطة من رأسها إلى صدرها وبطنها حتى تصل إلى ملتقى عجيب لعدد هائل من الأنهر. كان مصباً عظيماً تمتزج فيه ألوان أنهار الحياة والشهوة لتشكل بحيرة هائلة، مياهها تتموج بكائنات هلامية من نور، تسبح وترتوي وتمارس الاندماج. تركت هاجر نفسها تذوب بين تلك الكائنات، وراحت تغرق وتغرق حتى غابت تماماً عن الوعي.

بعد انتظار طويل، أقلق الملك وأتباعه، ظهر الشيخ من أعماق الظلمة مجللاً بياضه وسواده. عندما شاهده الملك قد عاد وحيداً، كتم خوفه، وأمسك سيفه. تريث عند رؤيته ملامح الشيخ ناطقة برضى وعيناه تشعان ببشارة. اقترب الشيخ من الملك، وبصمت وقور قدم له القارورة.

في تلك الليلة، وسط صحراء وعلى قمة جبل أحمر، فرشوا

لـ (تموزي) سريراً بأبسطة وملاحف من الحرير؛ نصبوا كلّة واسعة سقفها مفتوح على سماء زاهية، وتركوه وحده مع القارورة. خرجت له معبودته وهي لا تزال تعيش غيبوبة ذوبانها في البحيرة. دون أن ينبسا بكلمة التحما مع بعضهما، وغرقا بلذة جنونية حتى هامت صرخاتهما في السماء، وجعلت القمر يصبح بدراً والنجوم تتوهج أكثر والليل يكتسي بحمرة الحياء.

هكذا أمضت (هاجر) حياتها الأولى مبتهجة بخلودها. يخرجها ملكها كل ليلة. يمارس معها طقوس عشقه وملذاته. أمر نحاتي (أور) أن يصنعوا من هيئتها صنم (أنانا ـ عشتار) إلهة الحب والخصب والجمال. كان يترنم أمامها بصلوات خشوعه لخلودها. يستعطف بركتها لحروبه، وعند شحّ الأمطار يقدم لها نذور الاستسقاء. في عهده عمّ الرخاء في البلاد، وتتابعت عطاءات نهر الفرات بغرينه الأحمر، وغدت سنبلة القمح رمز بركة الملك وخصبه. وصل الأمر بالكهنة أن رفعوه إلى مرتبة إله. في هذه الفترة تمكن الأكديون، أخوال (هاجر) من أن يحصلوا على مشاركة أكثر مع السومريين في إدارة الدولة والمجتمع؛ فكانت أول الخطوات أن وُحدت المعابد وجُمعت الآلهة. كونوا ديناً واحداً تحت حماية (تموزي) الملك والإله، وعشيقته إلَهة الحب والجمال.

يوماً فاجأت الكارثة ذلك الملك. كان مع بعض فرسانه وحاشيته يتجول في البوادي القريبة، يمارس رياضته المعهودة بصيد الغزلان والأسود. ذات ليلة تخللتها ريح خريفية باردة أتت مبكرة على ميعادها، كان (تموزي) يستريح في خيمته في معسكر الصيد. كانت الحسان في خيمة مجاورة يعزفن على آلاتهن وينشدن ترانيم مديح. في اللحظة التي امتدت يده إلى

القارورة، أحسّ بفحيح حارق وقوة جبارة تلتف عليه وتضغط بعنف على أضلاعه. عندما هـرع الحراس على صـرخته المكتومة، شاهدوا ما لم يخطر في البال: كان الملك يتمرغ بهلع ورعب وقد التفت عليه أفعى عملاقة رقطاء. كانت تحدق إليه بغضب، ولسانها المشروط ينقط دماً. كان (تموزي) يحاول عبثاً أن يحرر نفسه من الأفعى، وتتخبط يداه بحثاً عن أي سلاح، وفمه فاغر قد شلّ رعباً واختنقت صرخاته. هرع الفرسان والجنود من كل صوب من أجل تخليصه. لا أحد كان يتجرأ على أن يرمي سهمه أو رمحه خشية إصابته. ظلوا يناوشون الأفعى بسيوفهم، وهي ما كفت عن التفافها على الملك وسحبه معها. كانت تزحف خارج الخيمة والمعسكر رغم جروحها إلا أنها لدغت جنديين وفارساً وشلّتهم في مكانهم. استمرت في زحفها حتى وصلت إلى مقبرة مهجورة غير بعيدة عن المعسكر. الجميع قد هبّوا وأحاطوا بالأفعى. الرجال كانوا يحومون حائرين يطلقون صرخات رعب وعار أمام عجزهم عن إنقاذ ملكهم، والنساء نفشن شعورهن ومزقن ثيابهن وتمرغن بالتراب وقد استحالت أناشيدهن إلى نحيب استغاثة وتراتيل دعاء إلى الإلهة الأم من أجل إنقاذ (تموزي). الأفعى كانت تزحف بين شواهد كتبها أسلاف منسيون، بينما كـانت خطوط شفق نحاسية تضفي على قبور مخسوفة هيئة حيوانات منقرضة تفتح أشداقها لابتلاع الموتى. في واحد من هذه القبور، توغلت الأفعى وهي ترسم على وجهها ملامح ساحرة عاشقة تأوي إلى مخدع معشوقها، وقد ارتسمت على وجه الملك لحظات غيابه في القبر ملامح عتاب شديد، وأطلق صرخة مبحوحة رجت في القبر وتداعت أصداؤها في سماء الصحراء: «لماذا؟».

هكذا اختفى الملك، وأيقن الجميع أن (كيجال) إلٰهة العالم السفلي قد فجّرت غيرتها من (عشتار) براكين حقدها، لبست جلد أفعاها وخطفت (تموزي) إلى عوالمها المظلمة.

هذه الميتة المباغتة لم تتح للملك وداع عشيقته، وتهيئتها لوضع جديد. ظلت غائبة في قارورتها لزمن لم تدركه. حتى انتبهت يوماً أنها تخرج من القارورة وأمامها ملك جديد. كان مفعماً بشباب فيه الكثير من ملامح ملكها إلا أنه كان يتميز بصلعة خفيفة تبرز تحت طاقية تاجه. كان ثملاً يحدق باندهاش في جسدها العاري الذي اصطبغ بلون نيران المشاعل المنثورة في القاعة. بشرته المحمرة وعيناه الجاحظتان وشفتاه الغليظتان كانت توحي بمزاج عصبي وإرادة هوجاء ومجون وشهوة حسية. أشار إليها أن تقف. ألقى على كتفها شالاً حريرياً أسود، وأخذ يحوم حولها ويتأملها بشغف وجوع كذئب يفتش عن أفضل نقطة ينهش منها فريسته. ثم ارتمى عليها وألقاها على البساط، اعتصرها بعنف وراح ينهش ثدييها ويرضعهما كطفل جائع. دون أن يخلع ثيابه، والشال الأسود يلتف على عنقها، ضاجعها بوحشية وعجلة وهو يصدر فحيحاً أقرب إلى النحيب، ثم انبطح على ظهره وغطى وجهه بالشال الأسود، مشيراً إليها أن تعود الى قارورتها.

هكذا استمر الحال. كل ليلة يخرجها ذلك الملك الغريب، ثملاً عصبياً، يلقي عليها الشال الأسود، ويحوم حولها، ويرضع من ثدييها، ويمارس معها همجيته. ودون كلام يدثر وجهه بالشال ويتركها تعود. حتى أتت ليلة أخرجها من القارورة وارتمى عليها باكياً، يقبل جسدها بتضرع وألم وهو يتمتم:

«سامحيني.. سامحيني.. يجب أن أعترف لك.. أبـوح لك بخطيئتي...».

كانا آنذاك في قاعة القصر وقد تُركت نوافذها مفتوحة لتنساب نسائم المساء الباردة. لحظة فتح فمه، تسرب من بعيد عواء ذئب. قال إنه ابنها الذي أبعدوه عنها بعد ولادته. صار ملكاً بعد موت أبيه المفاجيء. كان له ثلاثة أخوة من نساء أخريات، تخلص من منافستهم بعد أن بعث أولهم إلى ساحة الحرب وتدبر أمر اغتياله سراً وجعل منه شهيداً من أجل (اور). الثاني أقنع إحدى عشيقاته بأن تضع سمّاً في شرابه ثم اتهم خصمه الوزير بهذه العملية وذبحه على قبر أخيه. أما الثالث فقد تخلص منه بأن جعله يفقد عقله، إذ قدم النذور وقام بنفسه بذبح جارية عذراء على جرف الفرات فداءً لإله المياه العذبة الذي استجاب وسلّط أمواج العشق على أخيه الشاب وخلب فؤاده وجعله يمضي عمره متسكعاً على شطآن الأنهار يلقي بأشعار الهيام على قوافل القوارب المنحدرة في الشط الكبير الراحل الى الخليج. قال إنه منذ الليلة الأولى كان يظن بأن له علاقة قربى بها. كان قد سمع في طفولته نساء أبيه يتهامسن بحكاية القارورة وأمه المعتزلة في القصر المرمي بين الأهوار والصحراء. وعندما رآها تخرج من قارورتها لم يستطع أن يكبت رغبة دفينة في أن ينهش جمالها وكأنه بذلك ينتقم من أبيه الذي حرمه منها. تمازج حقده وشهوته جعله يخضع لنوازع حُب بدائي أصيل جاهل لأعراف الحضارة ومحرمات العقل.

طلب من أمه الغفران. عاهدها بأن ينقذها من خلود القارورة ويرجعها إلى حياة الحرية الفانية. استشار جميع الكهنة

والحكماء والنساك من دون جدوى. الجميع أجابوا بالاستحالة: ما أن يسترخي جسمها وتغمض عينيها حتى يستحيل كيانها إلى سائل تشربه القارورة. إن أبت الاسترخاء والنوم تهلك، وإن كسروا القارورة فإن المرأة تستحيل إلى سائل يتبدد في الأرض وتتبخر حياتها بين الغيوم. هكذا حُكم عليها أن تمضي خلودها في جوف القارورة وأحضان الأحفاد.

الأعوام التي أمضتها مع ابنها، كانت أعوام قحط وجدب. فيضانات متتالية أغرقت القرى والمدن ودمرت المزارع والبساتين. ثم أن (ايرا) استثمر الحال لينفخ على بلاد (سومر) كلها ريح الموت، وأطلق وحوش الطاعون من أقفاصها، فأبادت الحشود بعد الحشود من البشر. من استطاع أن ينجو بنفسه، إما اختبأ بعيداً في أعماق الهور، وإما هرب إلى أقاصي الصحراء ليعود من جديد إلى حياة أسلافه البدو.

لم تغفل أقوام الجبال هذه الفرصة. في يوم أسود، بعد أن تبدد جيش (سومر)، وقضت الكوارث على الرجال، اكتسح الغزاة الحدود الشمالية الشرقية. نشروا خراباً فوق خراب وسفكوا دماء فوق دماء. قتلوا جميع زعماء وشيوخ المدينة. حاصروا قصر الملك، وعندما عجزوا عن اقتحامه أحرقوه. بينما كانت النيران تنشب في الأركان، أخرج الملك أمه من القارورة، وبكى على صدرها وأخبرها بقرار موته. رفض الهرب من النفق السري المؤدي إلى أطراف المدينة. قال إن موت مدينته وشعبه هو موته. لم يعد راغباً في الحياة بعد الكوارث التي حلّت بسبب خطاياه. كان يؤمن بأن دماءه ستغسل عن أرض البلاد أسباب نكبتها. ودعها وسلمها إلى اتباعه لتعيش مع ابنه

الذي هرّبه الى الأهوار. عندما أمسكه الغزاة، لم يعرف أنهم صلبوه على جذع محروق كان من بقايا تلك النخلة التي شهدت قبل ثلاثين عاماً لحظات جنونية زرع في أثنائها أبوه (تموزي) بذرته في بطن (هاجر).

يوماً، وجدت هاجر نفسها أمام حفيدها الذي ورث القارورة عن أبيه القتيل. كان فتىً يافعاً غريب الأطوار. كان حنطي البشر وذا عينين عسليتين ثاقبتين كعيني بحار عجوز. ورث طبع المغامرة والاكتشاف عن أمٍّ قادمة من جزيرة (دلمون) وماتت بالطاعون، وورث عن أبيه شهوانيته وملامحه الشرسة، أما عن جدّه فقد ورث طبعاً روحانياً وميلاً للإيمان بالفكرة. هناك بين أحراش قصب البردي التي لم يطأها بشر، أقام جيشاً من الهاربين، وأعلن العصيان من أجل طرد الغزاة.

كان يتسلى بصيد جند الغزاة. يتركهم أحياء، ثم يخرج جدته من القارورة ليجعلها تشفي غليلها برؤيتها موت سافكي دماء قومها: كان يقطع أعضاءهم ويشويها ويجبرهم على أكلها. يتركهم معلقين حتى الرأس في الماء ليجفوا حتى الموت. يضعهم عراة في قفص كبير ويهد عليهم العقارب والأفاعي السوداء (العربيد). في كل مرة ينتهي من حفلة موت، يختلي بـ (هاجر) في قارب (مشحوف) مفروش ويضاجعها وسط القصب وأفاعي الماء وهفيف الطيور وصرخات الخنازير الوحشية.

هكذا ظلت هاجر لآلاف من الأعوام تتنقل من أرض إلى أخرى ومن حضن حفيد إلى حضن حفيد آخر. أجيال أمضتها بين الأهوار، وأجيال أخرى في الصحارى، وأجيال بين البحار

والجبال. خلال أكثر من خمسة آلاف عام توارثها أكثر من مئة وخمسين عشيقاً من أحفادها حتى ورثها (آدم) عن أبيه. كانوا أحفاداً من ملوك وقطاعي طرق وأنبياء وعبيد وشعراء ومزارعين ومعتوهين. خلال مئة وخمسين جيلاً عرفت جميع أوطان الصحراء الممتدة من ضفاف خليج (دلمون) حتى غرب افريقيا، بل إنها عاشت أجيالاً في أوروبا.

أحد أحفادها صار نبياً، ثم هجر (سومر واكد) هرباً من اضطهاد الملك. في بلاد الكنعانيين استقر وتزوج، وظلت (هاجر) مأواه السري حين يستبد به الحنين إلى بلاد الأسلاف. أحد أبنائه هرب بالقارورة وعاش حياة تسكع بين واحات الصحراء. التجأ إلى قبيلة تبنته بعد ان حارب إلى جانب رجالها. ظلّ مترحلاً مع قبيلته بين بوادي الجزيرة، بين سواحل الخليج والبحر الأحمر وبلاد اليمن. يمكثون فترات في الواحات ويهاجمون قوافل التجار ويسرقون المزارعين. تزوج بابنة الشيخ وثبت مركزه بين قومه. اختاروه شيخاً عليهم بعد أن مات شيخهم. بفضل ما تعلمه من حكمة أبيه، وما كنزته له (هاجر) من معارف الأسلاف، بالاضافة إلى تجارب ترحاله، صار نبياً على قومه. راح ينشر دينه بين قبائل البدو المترحلة داعياً إياهم إلى الاستقرار ونبذ الحروب وروح الغزو والاستلاب. كان يقول: «إن كانت روح الإنسان تستقر في بدنه، فإن روح القوم تستقر في أرضهم، كذلك تستقر روح الاله في بدن الكون. لن تستقر روحكم إلا باستقرار بدنكم. أية أرض تفتح لكم دواخلها استقروا فيها واحرثوها، لتكون لكم زوجة خصبة وأماً راعية. عطاء الأرض ورزقها يأتينكم بمباركة الرب، فابتنوا له بيتاً بين بيوتكم ليحميكم ويبارك أفعالكم...».أثناء

الليل شاهدوا حجراً مشتعلاً يسقط من السماء، فعرفوا انها إشارة الاله. حول ذلك الحجر ذبحوا كبش فداء وابتنوا معبداً وبيتاً للرب، وحوله ابتنوا بيوتهم، واستقرّوا.

هكذا كانت تمضي الأجيال وقارورة (هـاجر) تنتقل من حفيد ـ عشيق إلى نسله. أحد عشاقها قادته الظروف مرة أخرى مثل أسلافه إلى حياة ترحال وبحث عن مأوى. رحل مع قبيلته المهزومة من الحروب والجفاف إلى بلاد الشمال. ظلوا أعواماً في سيناء حتى استقروا أخيراً على ضفاف النيل. أجيال بعد أجيال عاشوا هناك، انصهروا وتزاوجوا وأنجبوا وماتوا، والقارورة تنتقل من جيل إلى جيل. بعد قرن ونصف، تمكن أحد الأحفاد من أن يصبح فرعوناً. أعلن توحيد الآلهة المصرية ليكون هو الممثل الأعلى لها. ثم مضت الأعوام ومعها النكبات والحروب والتحولات والانتصارات، قادت أحد الأحفاد من جديد إلى الصحراء. ارتحل مع قبيلة أخواله، وفي جعبته تلك القارورة التي يخبىء فيها جدته المعشوقة. توغلوا بعيداً في صحراء أفريقيا حتى وصلو إلى جبال الأطلس. بعد قرن من التجوال، استقر أحدهم بعد أن تزوج امرأة من سكان الجبال الذين كانوا قد قدموا من الصحراء قبل قرون طويلة. كان يحتفظ بالقارورة في كهف قريب. يخرج معشوقته ويحكي لها عن شوقه إلى قبيلته التي هجرها منذ أعوام. هناك استوطن أحفاده وامتزجت ذريته مع أقوام الجبال. أحد الأحفاد اشتغل بحاراً في مركب فينيقي، وقادته حياة التجوال بصحبة قارورته إلى أن يستقر أخيراً في مدينة (صور) بعد ان تزوج ابنة بحار.

حفيد آخر غادر (صور) مدينة جده وأبيه واستقر في

(دمشق)، حتى صار أحد أبنائه نبياً كنعانياً. ارتحل هذا النبي إلى بلاد الرافدين لينشر رسالته بين سكان (نينوى) و (بابل) و (أور). استقر هناك وتزوج وأنجب. يدور الفلك ليهرب أحد أحفاده مرة أخرى إلى أهوار الجنوب. لم يكن وريث ملك هذه المرة كجده قبل ألف عام، إنما قاطع طرق، يهاجم القرى ويسلب ويختبيء في أحـراش الهور. لم يكن يفقـه سـرّ الأحاسيس والأحلام التي كانت تكشف له عن معرفته السابقة بهذا المكان. استقر وتزوج عشرات النساء المخطوفات وأنجب قبيلة من الأشرار.-كلما اندلعت في روحه نيران شوقه إلى المجهول، كان يخرج (هاجر) من قارورتها لتحكي له عن أسلافه الذين عاشوا هنا بعد زمن الطوفان. بعد أجيال وأجيال هرب أحد الأحفاد مع القارورة الى المدينة الواقعة على الخليج. اصبح بحاراً ثم قرصاناً ليقع بحب أميرة قرطاجية تصحبه معها إلى قرطاجة؛ منها يقوده الزمن إلى بلاد (الهلفت) عند جبال (الألب) ليستقر مع ابنه وأحفاده حول ضفاف نهر (الرون) وبحيرة (ليمان). بعد خمسة أجيال، أحد الأحفاد تورط في قتل جندي روماني في أثناء شجار حانة، فهرب إلى بلاد اليونان. وقع أسيراً لدى أسطول الرومان فصحبوه معهم إلى سوريا. هناك صار راهباً في الوقت الذي كانت فيه المسيحية لم تزل طائفة متمردة في طورها الأول. واستقر في معبد في صحراء (حوران). كان متعبداً لا يعرف من المرأة غير صـورتها الشيطانية المغرية، باستثناء (مريم)، مانحة حنان وطهر ورحمة أبدية. يوماً اكتشف قارورة أسلافه بين متاعه. عاش أشد فترات بؤسه وهو يكافح شهوة عربيدة كانت تستعر في كيانه كلما أخرج (هاجر) من قارورتها. كان يأبى أن يلمسها وكاد

يسلّمها إلى الراهب الأكبر على أنها شيطان متنكر بهيئة حواء، لولا أنه اقتنع أخيراً بأنها حقيقة جدّته الكبرى وعشيقة أسلافه. يوماً شرب نبيذاً وذرف دموعاً أمام أيقونات المذبح وغرق في تأمل صورة السيدة العذراء. كانت ترانيم تنبعث من بين ممرات الدير تمر على قلبه وتنشر حيرته في أرجاء الصحراء. لم يدر كيف حدث الأمر. خلال غبش دموعه رأى العذراء تنبجس من أيقونتها وتتجسد أمامه على صورة إلهة للجمال والعذرية. كانت تستر مفاتنها بشال مخملي أسود، وحدثته بصوت مفعم بشفقة ودفء أمومي: «ابني ارحل من هنا.. الله قد بعث لك ملاك خصبه ورزقه.. ارحل بعيداً لتنتشر في واحات الصحراء كلمة الرب من أفواه نسلك».

انطلق الراهب بصحبة القارورة، يجول الصحارى، ناشراً كلمة التوحيد بين قوافل البدو. استقر في مدينة نجران عند أطراف صحراء اليمن، لتكون مركزاً لبث دينه في الجزيرة. أحد أحفاده جعلته حياة التجارة يستقر في مدينة تتوسط طرق القوافل. تزوج وأنجب وامتزج بالناس واعتنق دينهم. (هاجر) هي التي ألهمت عشيقها ليقنع شيوخ القوم بجعل معبد المدينة يضم أصنام قبائل الجزيرة. حدثته عن مدن أسلافه، إذ كانت تتنافس بالاستحواذ على أكثر آلهة المدن الأخرى لتكون عاصمة دينية وسياسية لها جميعها. معارفه التي اكتسبها من حكايات (هاجر) جعلته يعتكف على التفكر في أحوال الخليقة. عندما صار كاهن الكعبة الأكبر، حاول أن يضفي على عبادة الأوثان شيئاً من الإيمان بالله الواحد الأحد. أمر النحات بصنع أصنام كبيرة لـ (اللات وعزّى وهُبل) لتكون أرباباً كبرى تسمو

على جميع أرباب قبائل الجزيرة؛ هي الوحيدة القادرة على أن تكون الوسيط بين الإنسان ورب الكون.

ظلت القارورة تتنقل بين الأجيال حتى وجدت (هاجر) نفسها يوماً ترحل مع أحد الأحفاد إلى مدينة (الكوفة) ليكون داعية لثورة ضد حكم الأمويين. عندما صلبوه على بقايا نفس تلك النخلة المحروقة، كانت (هاجر) واقفة مع الجمهور متلفعة بالسواد تبكي مع حفيدها الصبي الحامل لقارورة أبيه. عاشت مع أحفاد عمروا بقبائلهم مدناً وقرى منتشرة على ضفاف دجلة والفرات. تزاوجوا وامتزجوا مع أسلافهم القدماء. عبر قرون وقرون، قادوا ثورات عبيد، وصاروا شعراء وصعاليك وجنوداً وخلفاء ومتصوفين صُلبوا وأحرقوا ورميت جثثهم في القيعان، و (هاجر) رفيقتهم في حروبهم وسجونهم وقصور نعيمهم.

حفيد انتقل إلى (مصر)، ومنها اتجه إلى الغرب، إلى بلاد أفريقيا. في طنجة تزوج وخلّف أبناءً. أحدهم تطوع في جيش خليفة الأندلس لصد هجمات الفرنج وأمراء الأسبان. وقع يوماً أسيراً لدى بحارة صليبيين عندما كان قادماً في سفينة من (مصر). باعوه ليكون خادماً في كنيسة واقعة بين جبال الألب. الحظ وحده أعانه ليحتفظ بالقارورة رغم تفتيش الجنود. كان يختبيء في كوخ مهجور ويخرج (هاجر) ليصلي معها إلى الله كي يصدقوا أنه تاجر مغربي ولا يكتشفوا أنه ضابط لدى الأندلسيين، لأنه سيعدم يقيناً. رغم أنه ظلّ لأعوام طويلة يمارس إسلامه سراً، إلّا أن الزمن جعله يعتنق المسيحية ويستقر ويتزوج فتاة من قرية مجاورة للكنيسة. ظل خادماً مخلصاً لكنيسته حتى هرم وصار جداً بعد أن خلّف كثيراً من

الأبناء والبنات. عندما كان يحتضر على الفراش، نادى ابنه الأوسط الذي كان شاباً يافعاً مفعماً بروح المغامرة وعشق النساء وأحلام السفر والترحال بين مقاطعات أوروبا. ناوله القارورة وهمس له بصوت مشرف على الانطفاء: «هي لك.. إن كان الزمن قد غصبني على التناسي فأنت يا ولدي لن تنسى وستكمل عني تاريخي... خذها وستحكي لك عن حلم ستظلّ فيه روحي خالدة...». بعد تجارب أعوام وأعوام من الترحال والسجن، تمكن من تحقيق حلم أبيه عندما وصل إلى البلاد التي دلته عليها (هاجر). على شاطىء الفرات بنى له بيتاً واستقر بين أبناء عمومة وزوجات كثار.

ظلّوا جيلاً بعد جيل يتوارثون حتى يدور الفلك ليهرب أحد الأحفاد من مذابح المغول إلى أهوار الجنوب. استقر هناك مع ذريته، واختلطوا مع القبائل، تناسلوا وانتشروا وعمروا مدناً وقرى.. واستمرت الحياة حتى وصل الدور إلى والد (آدم).

فصل ثالث

طبعاً أيها السادة، لا أود أن أطيل عليكم الحديث. أقول منذ ذلك اليوم، بدأت مرحلة جديدة في حياة صاحبنا (آدم). وربما يمكنني أن أستعجل وأقول إنها كانت مرحلة حاسمة ليس بالنسبة لحياته وحده، إنما حياتي أنا أيضاً، كما سترون. إنها المرحلة الأكثر غرابة واحتشاداً بأحداث عجاب.

في الليلة الأولى دخل (آدم) كون (امرأة القارورة). جسمه ظلَّ في عالمنا لكن روحه، عبر بوابة هذه الحورية، شرعت تتوغل في متاهات تاريخ سرمدي. في الليلة الأولى عند الفجر، مارس الحب معها. كل لحظة لذة وارتعاشة كانت زاخرة بأحداث عام. كما لو أن جسمه كان يستحيل إلى كتل سائلة هلامية تتلبس هيئة بشر، يولد وينمو ويمضي فترات عمره وبتجاربه وتحولاته حتى يأتيه الفناء في لحظة انتهاء ارتعاشته وخموده بين أحضان (هاجر) وقد اتكأ على السياج تحت ناظر القمر الغارق في حمرة الفجر.

لقد عاد (آدم) بعد تلك الليلة إلى المنزل الجبلي، وهو يحمل قارورته المستقرة في أعماق حقيبته السوداء. استغرب لأن ضميره ما أنبه إذ خان زوجته لأول مرة منذ أن أحبَّها، لا بل

رغم أنه امضى ليلة بيضاء حمراء ما أحسّ التعب إنما أحسَّ برغبة في زوجته تفوق المعتاد. بينما هما متعانقان، كان صوت غناء (فيروز) يمتزج مع تنهدات (مارلين) لتتشكل منهما ألحان تنطق بلذة الخلود. في لحظات النشوة تلك، كان وجه زوجته يكتسب ملامح (امرأة القارورة)، وترتسم عليه كلمات الأغنية الصادحة من المُسجل:

«أعطنـــي النـــاي وغـــنِّ فـــالـغنا سـرُّ الــوجـــود
وأنيـــن النـــاي يبقـــى بعـد ان يُفنى الـوجـــود»

حينها أحسَّ (آدم) بروحه المتسامية في الأعالي قد هبطت إلى أسفله، وراحت تتسرب سائلاً ملتهباً في أعماق زوجته، وظلّا متعانقين وقتاً طويلاً. ولم يدركا إلّا بعد عدة أسابيع أنّ ساعة الحُب هذه كانت ساعة خصب وزرع جنين في رحم (مارلين). منذ عامين وهما ينتظران ساعة الخصب هذه منذ أن وافق (آدم) على تحقيق رغبة زوجته في إنجاب طفل. وقد روت لي (مارلين) فيما بعد أنهما أمضيا العامين من دون أن يحدث الحمل. ظلّت تستشير الأطباء في هذا الشأن، حتى قالوا لها إن العلّة تكمن في زوجها. إنه يعاني من عقم خاص ونادر: بذرته ترفض الاندماج مع بذرة أية أنثى، لا لأنها غير قادرة على الاخصاب إنما العكس، فإن بذراته مخصبة وحيوية أكثر من اللازم، وهذا التطرف في النشاط هو الذي يعيق عملية الاندماج مع بذرة الأنثى. ويقولون إن هذه العلّة تعود أساساً إلى التكوين النفسي لنوع من الرجال الذين رغم شغفهم العنيف بالمرأة فإنهم في أعماقهم يمقتونها... يمقتون كل ما هو أنثوي وخصب فيها ولا سيما صفة الأمومة. عشقهم الأصيل للموت

يخلق فيهم الكره للمرأة لأنها رمز الحياة والخصب والديمومة، وهي الأرض والواقع والتاريخ. في حقيقتهم لا يعشقون في المرأة غير ذلك التوغل في أعماق المجهول، العودة إلى أزلية ما قبل الوجود، إلى سرّ كينونة أولى كامن في أحشائها. إنهم يمقتون فيها الحياة لأنها بالنسبة إليهم هي القبر الذي يدفنون حياتهم فيه. هكذا هي الحال، عندما يطول حرماننا مما نشتهي، يبدأ عشقنا يمتزج مع الحقد ويستحيل إلى جزء منه.

الأطباء اقترحوا أسلوب التلقيح الاصطناعي. وافق (آدم) على أن يعطي بذراته للمختبر ليمزجوها مع بذرات زوجته ليخلقوا اصطناعياً ظروف الأخصاب في رحمها. وقد باءت محاولتان مع هذا النوع بالفشل، لكن (آدم) و (مارلين) قررا أن يحاولا مرات أخرى. حتى أتى ذلك اليوم الذي ظهرت فيه (هاجر)، وحدث إخصاب (مارلين) الذي أدهش الأطباء، واعتبروه محض مصادفة نادرة الحدوث.

في الفترة الأولى، كان (آدم) يحمل (امرأة القارورة) في حقيبته الصغيرة، ويسافر إلى المدن والضواحي القريبة من (جنيف)،ويمضي ليلة مع حوريته في فندق ريفي. ثم تجرأ يوماً وصارحني بحاجته إلى غرفتي بضع ساعات كل مرة أكون فيها غائباً. خمنت أن له عشيقة سرية لا يود كشف هويتها، ولم يكن يخطر ببالي أي شيء عن (هاجر). لم أكتشفها إلاّ بعد فترة.

مع الأيام ، صار (آدم) أكثر جرأة في اقتحام أماكن جديدة مع حوريته ليمارسا معاً ملذاتهما. يدخل إلى السينما ويجلس في الصفوف الأمامية الفارغة، يخرجها من قارورتها ويجعلها ترتدي ثوباً شفافاً وحذاء خفيفاً ويجلسها بجانبه ويشرح لها

الفيلم. يوماً بعد يوم كان يكتشف أماكن جديدة لممارسة اللذة: المسابح، المراقص، القطارات، والأزقة والحدائق؛ بل وصل به الأمر أنه صار يحس بلذة أشد كلما اشتدت غرابة المكان وصعوبته، لم تفته حتى المتاحف ومكاتب الدولة والبنوك ودور العبادة.

جلب (آدم) انتباهي بالتغيرات الملحوظة التي أخذت تطرأ على شخصيته. صار أكثر إيجابية بقبول دعواتي وتمضية الأماسي في الحانات والحفلات. بدأ ينعتق من انطوائيته المعهودة وحياته المنمطة بالدار والزوجة والحاسوب. صار يحتسي بتردد بضعة كؤوس نبيذ ثم يطلق العنان لنشوة الثمالة. ولم أفهم أول الأمر تلك العبارات الغامضة التي كان يهذي بها أحياناً عن قارورة وحورية وتاريخ أسلاف. حسبت أنه يكرر عبارات قرأها في كتاب. كنت أندهش وأنا أراه بعد سبعة أعوام من الانغلاق والعزلة، ينطلق معي في ليالي عبثي ويشاركني في تسكعي بين الحانات. بل انه، لأول مرة، راح يسألني عن أخبار الحرب ويشترك في الحوارات الجارية بين الأصحاب.

لم يعد يسخر مني وهو يرى كيف أني لا أدرك حياتي إلّا من خلال إدراكي لحيوات الآخرين، وأن عيونهم هي مرآة أشاهد فيها وجودي، وأني مغرم بالتنقيب في خباياهم، وصوتي أسمعه في أصواتهم، وذاتي تسكن في ذواتهم. بل أني كثيراً ما كنت أتخيل شهواتي حصاناً جامحاً حبيس اسطبلات الناس، ولكي أطلق سراحه كان عليَّ دائماً أن أتسلل إلى أعماقهم كضيف أو في أسوأ الأحوال كلص.

ها هي (امرأة القارورة) تحيي فيه حلماً مترسِّباً في أعماقه. منذ ذلك اليوم افترقنا. بالنسبة إليه، لقد انتهى عصر نُبوته، واحترقت فلسفاته وأحلامه الثورية في نيران الشرق البعيد، وما عليه الآن إلاّ أن يبحث عن فلسفات وأحلام تتناسب مع طريقه الجديد. اختار النسيان ليكون سلاحه في كفاحه هذا. بدلاً عن التنظيم وجد (مارلين) وبدلاً عن القضية وجد (الحاسوب)، أما حلم المدينة الفاضلة وجنّة حوريته فلقد استعاض عنهما بعمل طموح وحلم مستقبل زاه، سوف يصبح فيه غنياً واختصاصياً معروفاً ومواطناً سويسرياً مُعترفاً بحقوقه من قبل الدولة والمجتمع. صار مبدأه في الحياة: كلّ شيء هنا أفضل من بلادي. حتى قسوتهم وعنصريتهم أفضل من هناك. أي نوع من الآلام في (جنيف) كان يداويه باستذكار آلام أفظع وأشرس سبق وأن عاشها في الوطن. لو شتمه شرطي هنا، فهو يستذكر صفعات وركلات ووحشية الشرطة هناك. لو رفضه أحدهم وآذى مشاعره هنا، فإنه كان يستذكر عنف الناس هناك وقسوتهم على بعضهم البعض، فجسمه ما زال حتى الآن يحمل آثار جراح وحروق ماضية. لن ينسى أبداً ساعات غضب أبيه، وظلّ عميقاً في ذاكرته ذلك اليوم، حينما كان عمره خمسة أعوام، ضربه أبوه وشتمه، ولسبب ظلّ مجهولاً، قام بتعريته من ثيابه وطرده خارج الدار ليكون مسخرة أولاد الحارة، حتى أتته أمه وسترته بعباءتها السوداء. حتى الآن يراوده كابوس عريه والناس يسخرون منه.

ها هو الآن (آدم) يمضي الوقت مع (هاجر) وهي تسرد له ذكرياتها عن أسلافه. كانت تمتلك ذاكرة مدهشة في خصوبتها وغزارتها. ليس جسدها وحده يعيش خلوداً وشباباً، إنما كذلك

روحها ومشاعرها وذاكرتها. تذرف دموعاً على ضحايا وتفرح مع منتصرين، كأنها لم تزل تعيش معهم. كانت كطفل في تساؤل دائم عن معاني الأشياء. كل ساعة تمضيها خارج القارورة، هنالك اكتشاف جديد بالنسبة إليها. تطالبه أن يشرح لها كل شيء: السينما، التلفزيون، أخبار الصحف، التكنولوجيا، المجتمع، الثورة، المرأة، التاريخ. وصاحبنا ما قصَّر، أفرغ في رأسها كل ما تعلمه من الحياة والكتب وتجارب السياسة والهجرة. لاحظ أنها في أثناء استغراقها في اكتشاف الأمور والإنصات لأحاديثه، فإن وهجاً عجيباً كان ينبعث من عينيها، شبيهاً بذلك الوهج الذي ينبعث لحظة وصولها إلى ذروة اللذة. هذا ما جعل (آدم) يدون الفكرة التالية: «إنها لا تحس الأشياء وتكتشفها فقط، إنها تمارس معها الحب. إن كان الله قد خلق الإنسان من الطين المعجون باللذة، فإنه قد خلقها من اللذة المعجونة باللذة... إنها هي اللذة بذاتها!».

أكثر ما كان يثير استغراب (آدم) أنه منذ أن التقى بـ (امرأة القارورة) عادت إلى الظهور في مخيلته صورة تلك المرأة السجينة التي أفعمت خيالات صبانا ونجحنا في أن نطمر ذكراها بعد أن وقع هو في حبِّ (إيمان) و (مارلين)، وأنا في ملذات طيشي، لكن ذكراها بزغت الآن بعنف جعله يعيش من جديد تفاصيل ذلك الحادث الذي غير مجرى حياتنا معاً وساهم في قطع شريان آخر بين روحينا:

في أعوام الستينات، وفي سن التاسعة اشتغلنا أنا و (آدم) في حانوت يجاور (مديرية الأمن العامة). كنا كل عصر بعد عودتنا من المدرسة نحمل المأكولات وقناني المشروب لنبيعها

إلى الموقفين السياسيين. لم نكن نجيب عن أسئلة هؤلاء الموقوفين ونتحاشى النظر إليهم لأن الحراس وأهلنا وصاحب الحانوت أخبرونا بأن هؤلاء مجرمون كفرة يريدون سفك الدماء وتخريب الدولة وفعل الحرام حتى مع اخواتهم وأمهاتهم.

يوماً، بعثونا إلى غرفة التحقيق لتسليم العريف (عادل) طلبه. والحقيقة أن غرفة التحقيق هذه لم ندخلها سابقاً إنما تنصتنا مرات ومرات إلى صرخات الألم الصادرة منها. عندما دفعنا الباب ودخلنا الغرفة المعتمة، واجهتنا رائحة عطنة وتعرق بشري. كان العريف جالساً على كرسي خشبي وأمامه طاولة مفروشة عليها أدوات التعذيب: عصي وأنبوبة بـلاستيكية واسلاك كهربائية وقنينة وقيود، وكذلك بضعة أوراق مجعلكة وأقلام. عندما اتكأنا على الحائط بانتظار تناول العريف لطعامه وشرابه، تحاشينا النظر إلى الإنسان المعلق الذي لاح لنا شبحه أمامنا على الحائط. كانت تمطقات العريف تمتزج مع انفاس مخنوقة متقطعة صادرة عن ذلك الإنسان. قرصني (آدم) وهمس بأذني أن لا ننظر. لكننا ما استطعنا مقاومة رغبة قدرية في متابعة قطرات دم متساقطة من الأعلى. رحنا ببطء حذِر نرفع بصرنا لنتابع القطرات تلك. كانت قبضة (آدم) تشتد كأننا مقبلين على مشاهدة جني. رأينا أولاً قدمين بالكاد تلامسان الأرض. كانتا عاريتين والأصابع ترتجف بين حين وآخر كأنها تجاهد للاستناد أكثر على الأرض. كانتا ناعمتين رشيقتين كقدمي صبي. بخشوع مندهش راحت عيوننا تنساب صاعدة إلى الساقين الأبيضين العاريتين وقد رسمت الدماء مجاريها عليهما. عند الركبتين كانت حوافي التنورة السوداء متهدلة ممزقة، أما الفخذان فقد ارتسمت خطوط امتلائهما من

خلف القماش. لأول مرة نشاهد هكذا فخذين حقيقيين وقد بان بياضهما متوهجاً عبر فتوق التنورة. سبقني (آدم) إلى رفع بصره إلى الأعلى. كان قميصاً أبيض مرقطاً بزهور ملونة ملوثة ببقع حمراء وفاقعة، وقد برز عبر شقوقه ثديان نافران ظهرت حلمة أحدهما. كان الذراعان مرفوعين وقد بان شعر الإبطين. الرقبة الرقيقة كانت منثنية وقد مال بها الرأس مستنداً إلى الكتف. لم نصبر. رفعنا عيوننا لتلتهم وجهاً أنثوياً ما حسبنا يوماً أننا سنراه: امرأة شابة معلقة من معصميها الجريحين بقيد مشدود إلى قضبان نافذة في أعلى الجدار. سوف لن ننسى إلى الأبد ذلك الوجه الفاتن المُعذب، وتلك العينين المكتظتين بأسئلة مبهمة. ستظل إلى الأبد صورتها منطبعة عميقاً في ذاكرتنا، وسيظل وجهها يراودنا في وجوه جميع نساء حياتنا. أما عيناها، فرغم الشعور بهول المصير الذي كان يصبغهما، فإن ثمة ألقاً صافياً ومتجسداً كماء رقراق ينساب من نبع باكر لم يشرب منه كائن.. حتى أن قشعريرة غريبة سرت فينا كأننا كنا نغتسل بنظراتها الساحرة، ولم أعثر يوماً على مثيل لذلك الوجه وتلك العينين إلا عندما التقيت بـ (هاجر) بعد أكثر من عشرين عاماً على هذا الحادث.

بقينا ثلاثة أيام محمومين، نختلق الحجج، وندخل إلى غرفة التحقيق لنشاهد سجينتنا. كنا نقف مشدوهين أمامها، وجلين، مرتجفين، غارقين في مشاعر رهبة وتعبد وعشق وفجور كأننا في حضرة واحدة من آلهة شعب بدائي ناطقة بخصب وخلود. في المساء كنا نختبيء في الحديقة الواقعة خلف الغرفة، نراقب كفيها المشدودين المرئيين عبر قضبان النافذة، ونتنصت مرتعبين إلى صرخات عذابها المصحوبة بشتائم

الجلادين وكلمة (اعترفي..). في مساء اليوم الرابع رأيناهم يدفعونها معصوبة العينين إلى شاحنة مع ثلاثة معتقلين آخرين. سمعنا العريف يهمس بالسّر إلى صاحب الحانوت: لقد دفنوهم أحياء في حفرة خارج بغداد، مثل جميع الموقوفين الخطرين الذين يأبون الاعتراف.

منذ ذلك اليوم، بدأت تتحطم فينا معابد ثقتنا وإيماننا بما تعلمناه من معتقدات أهلنا وقومنا ودولتنا. كالفيضان اجتاح الشك وقلق الإيمان روحينا، وطفقا بلا رحمة يزيحان عنا ما تعلمناه وما سنتعلمه حتى يوم رحيلنا.

سقطنا مريضين، ومكث (آدم) بعدي بأيام طريح الفراش بين الحياة والموت. كنا معاً صريعين بين أنياب حمى حزننا وخيبة آمالنا، تنهش بنا كوابيس سجينة معلقة شبه عارية تصرخ بنا، ومن عينيها تسكب علينا مياها دفاقة حارة كانت تصلينا وتبث فينا لذة لم نعرفها من قبل.

منذ ذلك اليوم، تغيرت حياتنا، وبدأنا نشق طريقين مختلفين، ونبتغي هدفاً واحداً: حلم بجمال مطلق وخالد. (آدم) اختار الموت ليخلق جنته الموعودة، يحرر سجينته من قيودها ويلبسها ثوباً أبيض شفافاً لتكون حورية يحلق معها فوق الجنان وأنهار خمر وعسل ولبن. أما أنا فإن حزني وعشقي لسجينتي قد استحالا إلى لذّة غريبة ممزوجة بصرخات عذاب ودم. كم من ليال أمضيتها وأنا استمني على جسدها وهي معلقة من معصميها بقضبان النافذة! لم أكن في أعماقي راغباً في التمتع بآلامها، إنما لكي أشاركها عذابها وأضفي على مشهد جراحها وموتها لذة وشبق الحياة. صار الموت وسيلة (آدم) ليلتقي

حوريته في جنته الخالدة. كان يبحث عنها في (إيمان) الموصلية، وفي (مارلين) السويسرية، وفي الثورة والتنظيم والقضية والحاسوب. أما أنا فقد فضلت أن أبقيها حية متجسدة في خيالي لأمارس معها شبق الوجود رغم الجلادين وجدار غرفة التحقيق. فكنت في الخيال وفي الواقع أغور في جسد المرأة وأنهشها بلهيب شهوتي محاولاً أن أغور في أعماقها بحثاً عن عالم سجينتي الخالد.

الآن، وأنا أنظر في عيني (آدم) وهو يحكي لي عن حوريته (هاجر)، لم أعد أشاهد تلك السجينة معلقة مشرفة على الموت كما رأيتها دائماً في عينيه، بل اني لأول مرة أشاهدها طليقة مبتهجة في جنان وهاجة وأنهار من مياه ونور. لقد استحال (آدم)، منذ أن التقى بـ (امرأة القارورة) إلى كائن يحيا ويستمر في الوجود مستنشقاً حكايات حوريته عن الأسلاف. في دمه راحت تسبح عوالم قديمة بأراضيها وأقوامها وفنائها وخلود سلالاتها. وما أدركت قوة هذه الحكايات وتأثيرها السحري الخارق إلا بعد أن عشتها أنا أيضاً بعد فترة وجيزة. عرفت فيما بعد أن كل شيء في (هاجر) كان يتجاوز حدود الطبيعي. تجاربها مع أسلافنا جعلت منها امرأة مثلى، معطاءة لأعظم الملذات، ومتمرسة في إثارة رغبات دفينة، تتحد فيها المكنونات، وتنعدم الفروقات، ويسمو الوجود إلى غايته الأزلية في الرقي والصعود نحو المطلق: الأجمل والأروع والخالد.

كانت تخلب (آدم) تلك السهولة في ممارسة الحب معها. إنه لم يكن مضطراً إلى أن يداعبها لكي يهيئها، كما تعود مع النساء. كانت دائمة التهيؤ والحرارة والرطوبة. الأكثر من هذا

أنها كانت تصل إلى ذروة اللذة في الوقت المناسب تماماً، ولم تجعله يحس، ولا في أية مرة، بضرورة كبت حركته وتهيجه واللجوء إلى العقل لكي ينتظرها حتى تصل إلى الذروة المتأخرة عادة عند غيرها. كان يقول عنها: إنها سرمدية الشهوة.

بدأت علاقتهما بتبادل جسدي محض. كان يعطيها جوعاً عتيقاً ولهيب توق أزرق، وهي تعطيه خصباً خالداً ومهارة خمسة آلاف عام في صنع اللذة. مع الزمن وتوالي اللقاءات المفعمة بحكاياتها، هي عن تاريخ الأسلاف، وهو بشروحاته عن تطورات العصر وأحلام المستقبل، ثمة نشوة جديدة طفقت تنمو وتمتزج مع ارتعاشة جسديهما: نشوة الروح.. نشوته هو بولوج ماض مصنوع من حكايات لا تنتهي، ونشوتها هي بانفتاح على مستقبل متجسد في شروحات حالمة. كان (آدم) يلتهم منها حكاياتها عن الماضي، ويغور خياله بعيداً في كهوف كلماتها إلى حد أنه كان يتلمس جسمه ويشاهد نفسه في المرآة بحثاً عن آثار الأسلاف. وكانت هي تتلقف منه أحاديثه عن عصر (الحاسوب) وتطور العلم والتكنولوجيا وغزو الفضاء، وتغيب في أحلامه عن «العدالة والمساواة بين النساء والرجال والغاء الحدود واتحاد الشعوب في دولة ديمقراطية واحدة تقودها هيئة الأمم المتحدة»، كما كان يردد لي ذلك في ثمله.

في هذه الفترة كنت ألاحظ على وجه (آدم) علامات الصحة والبهجة، صار هو الذي يسخر مني ويناديني: (أيها الهَرِم). كان يزورني نهاراً في غرفتي، ويوقظني من نومي. يتفحص رسومي، ويسألني عن مغامرات ليلتي. منذ أن قررنا قبل سبعة

أعوام أن يشق كل منا طريقه الخاص، وأنا أعيش حياة عابثة مختلفة تماماً عن حياته: أستيقظ بعد الثانية ظهراً. أبدأ بالرسم وأنا احتسي شايي وأطبخ طعامي وأتنصت لأخبار وموسيقى. في المساء كنت أتسلل إلى حانة (القط الأسود) في (كاروج) وأبدأ باحتساء كؤوس نبيذ أحمر ثم أتنقل بين حانات ومراقص حتى إطلالة الفجر لأعود مع صيد ليلتي. كنت عند الكأس الأولى أشترط أن تكون صيدتي مهرة جامحة أروضها على سريري، لكني مع تناوب الكؤوس كنت أتنازل بالتدريج عن شروطي حتى يصل بي الأمر ـ عندما يشح الليل بعطائه ـ أن اتقبل حتى من تتجاوز عمري بكثير، بل إني أحياناً أغمض عينيّ وأتقبل عجفاء نحيفة قاحلة أو سمينة مترهلة غير سالكة، وكنت أخفف عن تقززي بشيء من راحة الضمير لأني أرضيت امرأة. كان المهم عندي أن لا أعود إلى فراشي وحيداً. ليس لي في حياتي غير الرسم والحب، وفي كلا الحالتين المرأة هي الغاية والموضوع. كنت صياداً والليل هو نهري. كنت لا أتعب ولا أملُّ، وفي صبر الصيادين تكمن قوتي. أرمي صنارتي في نهر الليل مرات ومرات دون كلل حتى الفجر. مرة تخرج لي علبة صدئة، ومرة ضفدعة، ومرة غصن شجرة، ومرة سمكة فاطسة، حتى أصيد تلك البُنية الهائجة التي تظل تلبط بين يدي لأشويها وتشويني على نيران شهواتنا حتى الصباح. كل نهار، عندما أواجه لوحتي أضفي عليها مسحات ألوان جديدة مما تكور في تلافيف روحي من ذكريات امرأة الليلة السابقة. كل امرأة كانت تترك على لوحتي ألوانها وخطوطها، إن كانت امرأة كريمة محمومة ذات أمجاد في سوح الجسد ـ وهن قلائل عادة ـ فإن ذكراها ستجعل فرشاتي تنساب متألقة على القماش برضا

وسلام وترسم خطوطاً متموجة راقصة، ونوراً ومياهاً وسماء وحقولاً وآفاقاً متنائية. وإن كانت امرأة ليلتي متمنعة باردة كموقد بلا حطب ـ وهن أغلبية عادة ـ تستلقي معي كدُمية منفوخة، عاقلة وتستحي من الفحيح والاستهتار، في نهار الغد ستنهال فرشاتي بضربات مرتبكة غاضبة لتفرغ على القماش ألواناً حارة عنيفة وخطوطاً حادة مُتكسِّرة ومُجعلكة، وترسم عواصف وغيوماً وحرائق وعيوناً مدماة وثقوباً سوداء في كون غامض.

في كل لقاء كانت (هاجر) تنتزع (آدم) من واقعه وترميه في أغوار أحد عوالمها المنسية. لاتفوت أية مناسبة إلاّ وذاكرة التاريخ حاضرة فيها. إذا ما رأت فيلماً تاريخياً، خرجت منه تذرف دموعاً وهي تحكي له عن جده فلان الذي مرَّ بمثل أحداث الفيلم، في سجن تحت الأرض بعد اجتياح الاسكندر المقدوني لمدينة بابل، وهلم جرا، أو هي تضحك بخلاعة تجلب انتباه زبائن المقهى، وتقول له إن جلسته هذه ونظرته المتفكرة إلى الكأس ذكرتاها بأحد أجداده الذي كان شاعراً داعراً في قصر الخليفة.

يوماً، كان (آدم) يتنزه معها في غابة مطلة على شاطىء بحيرة (ليمان) عند أطراف مدينة (مونترو). كانت شمس خريف نادرة في طريقها للاختباء وراء جبال (الألب) المطلة على البحيرة، تاركة في أعقابها وهجاً نحاسياً يجعل الأشجار العارية كشواهد مقبرة خرافية. كانت (هاجر) ترتدي ثوباً أبيض شفافاً يضفي عليها هيئة ملائكية منسجمة مع المشهد. كانت تسير أمامه كمهرة معتوهة، مرفوعة الرأس، تتمايل في

مشيتها، وخصلات شعر حنّي تتدلى على ردفين مرتجفين. عندما كان يحدثني عن ذلك، كان منفعلاً ودموع الارتباك في مقلتيه كطفل يحكي فيلماً مرعباً. غصّ بالكلمات ليعبر لي عن مشاعر الاندهاش التي انتابته وهو يحدق إلى قامة (هاجر) تتهادى أمامه في تلك الغابة. كان يشعر بإلفة ونكهة عُتق كأنه سبق وزار هذا المكان. لم يسبق له أن رأى (هاجر) بمثل هذه الصورة المشوشة الهلامية كأنها في حلم... انتابه إحساس ما كان يتجاوز الواقع والمعتاد. لاحظ أنها كانت تُصدر همهمات استغراب وتحدق في الغابة كأنها تستذكر شيئاً. ثم فجأة أطلقت آهة تعجب، وتجمدت في وقفتها وهي تحوم برأسها في الأرجاء وترفعه إلى السماء كأنها تستغيث. اقترب منها وحدق إلى عينيها يفتش فيهما عما اكتشفته. كانت دهشته لا توصف. لم يشاهد في حياته عينين بهذه السعة التي تجعل جمالهما من التطرف بحيث أنه يكاد يصير قبحاً. كان فيهما مشهد مجسم كأنه يراه عبر نافذتين يغطيهما الندى: الخصب والعشق ممزوجان بالدمار والغضب. كانت هناك الغابة مكتظة بأشجار ومحاربين مدججين بسيوف تبرق بصرخات عذاب ورعب ترتج في السماء. وفي طرف المشهد، كانت هناك (هاجر) في حرش الغابة بعيداً عن المحاربين، عارية تضطجع مع محارب يشبه (آدم)، جسده مخضب بجروح تنزف وهو يمارس حُباً وموتاً على جسدها.

لم يدرك (آدم) كم دام هذا الموقف. خُيّل إليه انه قد غاب عن الوعي وتوغل بعيداً في مشهد عينيها وعاش أحداثاً بطول أعوام وأعوام. أقسم لي أنه لم يكن مرة مفعماً باليقين بأنه قد عاش يوماً مثلما عاش ذلك اليوم في عينيّ حوريته هذه. ذكر أن

ذراعيه امتدتا إليها وحملتاها إلى زاوية كثيفة الأغصان. أوقفها إلى جذع شجرة هرمة، وراحت أصابعه وشفتاه وأنفاسه تغوص في ثنايا لحم عابق بطفولة وفحش. بينما كان يغور فيها كانت عيناه تحدقان في عالم عينيها ولسانه يلعق دموع ذكراها. في لحظة انبثاق الرعشة المخبولة، شقّ صمت الغابة انفجار اطلاقة وانبعاث حشرجة وضجة بين أغصان الشجرة الهرمة، ثم سقط شيء من الأعلى على صدريهما العاريين مفعماً بحرارة وحركة. حينما انفصلا من هول المفاجأة، كان رعبهما ممتزجاً ببقايا لذة، وشاهدا أفعى على الأرض مرقطة بألوان وجراح، وهي تلبط بين أوراق يابسة وأتربة لتكافح موتاً اجتاح جسدها مع اطلاقة صياد مجهول.

هنا يتوجب عليّ أن أخبركم بصراحة أني مع الأيام وتوالي حكايات (آدم) ومتابعتي للتغيرات التي كانت تطرأ على سلوكه، رحت أنا بدوري أغوص بالتدريج في تشعبات هذه القضية، ونمت فيَّ رغبة جامحة في مشاركته في حوريته. كنت عندما ينام عقلي وتنطلق رغباتي الدفينة يتسلل خيال (هاجر) متلبسة هيئة (السجينة) لتمارس بغاءها في أحلامي. رسمتها في خيالي على أجساد نساء صيدي ومارست مجوني معها. صنعت لها في خيالي صورة متكاملة لم تختلف كثيراً عن صورتها الحقيقية عندما التقيتها فيما بعد. توغلت معها بين أحراش البردى وتلافيف الأهوار التي لم أرها في حياتي، إنما عرفتها من حكايات والد (آدم). أمضينا ليالي وليالي ونحن ننصت لحكاياته عن قبائل الأهوار وعن حروبها وشيوخها وحياتها بين المياه والأبقار والأفاعي والطيور والخنازير الوحشية. حكت

(هاجر) عن حياة أبيه وكشفت له أسراره. قالت إنها التقته وهو فتى وزغب وجهه ما زال خفيفاً. بعد أن عاش قصة حب فاشلة مع فتاة من قريته، سرق القارورة من أبيه، وهجر الأهوار ليلتحق بأول فصائل الجيش. عاشت معه (هاجر) جميع مراحل حياته التي أمضى شطرها الأكبر في محاربة انتفاضات قبائل البلاد: تمردات كردية بين جبال صخرية وثلوج، غزوات قبائل بدوية قادمة من بادية الشام وصحراء نجد، انتفاضات عشائر الجنوب والأهوار ضد بعضهم البعض وضد اقطاعيِّهم وشيوخهم.

مما أدهشنا أول الأمر أنها كانت تسرد حكايات الحروب والعنف كأنها مثل جميع الأمور الأخرى التي عاشتها. صحيح أنها كانت تحزن عندما تتذكر موت عشاقها، إلا أنها ما كانت تتأثر بذكر موت الجموع عبر حروب وطوفانات وطواعين ماحقة. ادركنا سبب عدم حزنها عندما عرفنا أنها خلال خمسة آلاف عام عاشت حروباً وكوارث ما لم يعشه إنسان من بلاد أخرى حتى وإن أمضى خمسة آلاف عام. منها عرفنا أننا من سلالة شعوب لا تتناسل بالدم فحسب إنما تحيا وتبني حضارات زاهية وتنشر أدياناً وأفكاراً إنسانية مسالمة، كلها معجونة بالدم. قالت إن أسلافنا كانوا يتهكمون من تسمية أرضهم بـ (الهلال الخصيب)، فهي في نظرهم لا تستحق إلاّ ان تسمى بـ(السيف الخصيب): حروب ضد ناس، وحروب ضد طوفانات مدمرة، وحروب ضد طواعين مهلكة، وحروب ضد غزاة أجانب، اضافة إلى حروب يومية صغيرة بين أفراد من أجل توافه حياة يومية.

الآن فقط تكشف لـ (آدم) سرّ ذلك الحدث الغريب الذي جرى يوم كان أبوه يعاني سكرات الموت. أتذكر يوم زارنا رجل يشبه إلى حد بعيد والد (آدم). لم يكن أحد منا يعرفه، حتى والدة (آدم) لم تتعرف عليه. قال إنه صديق قديم يعود أصله إلى نفس أصل الأب وقد هجر الأهوار معه وشاركه في جميع حروبه وتجاربه. لكننا لم نسمع به من قبل. قلنا لعل هناك سبباً ما جعل الأب لا يذكره في حكاياته عن ماضيه. كان شيخاً قد تجاوز السبعين وقد ارتسمت على وجهه الأسمر المحروق بالشمس وعلى كفيه آثار جروح قديمة. كان يرتدي ثياب أهل الجنوب التقليدية: عقال عربي وكوفية (يشماغ) مرقط وسترة فوق صاية قهوائية وقميص أبيض دون ياقة. ومن يده تدلت مسبحة ذات حبات سوداء لامعة بالأخضر وطقاتها تطن بأصوات لذيذة. عندما اقترب من السرير، نظر إليه الأب بابتسامة شاحبة تداري الموت. انحنى عليه الشيخ وعانقه وبكيا بصوت خافت، ثم أخذا يتهامسان بكلمات ما كانت مسموعة، إلّا أنني الآن أدرك جيداً وبعد عشرة أعوام على الحادثة أنهما تلفظا بكلمة (قارورة)، وصدرت من الأب كلمة: «شكراً» مسموعة نابضة بوفاء وعرفان. ثم استدار الشيخ ناحيتنا وأمر الوالدة والأخت بأن تعدّا قِدر ماء دافيء وطشتاً مع آنية فيها شراب (عِرق السوس) وقدحين وبعض الكعك وثمرات تمر. بعد أن وضعنا هذه الأشياء على الأرض قرب السرير، طلب أن نخرج له صندوق حاجيات الأب القديمة، ثم أمرنا أن نتركهما وحدهما ونغلق الباب. لم نطرح أي سؤال. كنّا مأخوذين بحضوره الغريب، بشبهه الكبير بالأب، بالحب الغامض الذي يجمع بينهما، بهذه الثقة التي يأمرنا بها. بعد

دقائق خرج وأقفل باب الغرفة وجلس معنا صامتاً طوال النهار. ظلّ متمدداً على الأريكة يحتسي شراب (نُومي البصرة) وبعض اللبن، ويترك بصره يغيب في إحصاء حبات المسبحة وهو يتمتم بأسماء الله الحسنى. أدّى صلاة الظهر ثم حدّق فينا جميعاً وكأنه يتبصر في أعماقنا، ويشاهد أفكارنا القلقة، ويربت على قلوبنا الكئيبة، وشعرنا حينها بتسلل تيارات خدر في أبداننا، ورحنا جميعاً نشاهد بعضنا البعض، ننساب على أرض الغرفة كأننا أخذنا نستحيل إلى مياه، والجدران تذوب كثلج وتتكشف عن عالم شاسع بلا آفاق ولا منتهى. كنا جميعاً نطوف على سطح كون من مياه، وقد شرع الشيخ في الارتقاء والتناثر في الأعالي. ذرات وذرات شكلت فوق كوننا سماء هائلة وغيوماً وكواكب، في كل جزء منها كانت عيون الشيخ تراقبنا، ونحن ما زلنا نذوب وذراتنا تنتثر بين أمواج كوننا، ونشاهد أنفسنا في كل ذرة ماء، وننصت لطنين حبات مسبحة الشيخ وقد طغت وطغت حتى صارت هي صوت الوجود الأوحد. عندما صحونا من غفوتنا وجدنا الشيخ قد اختفى وقد انتشرت في الدار ذرات مساء معتمة، فتوجهنا كلنا إلى الغرفة. عندما فتحنا الباب عبقت رائحة نفاذة، فعل جنسي وبخور وعِرق سوس وتمر. كان أبي مغمض العينين، مكسواً بغطاء أبيض، ومستلقياً على سريره الذي أعيد ترتيبه. رأينه يفتح عينيه كأنه في حلم سعيد، ويرسم ابتسامة مفعمة بشُكر وحُب. كان جسمه ووجهه ينبضان بحياة ودفء كنهر ألقى طينه وغرقاه في البحـر واستعاد صفاء لونه. كانت آنية عرق السوس والقدحان فيها بقايا شراب، والتمر والكعك لم يبق منهما شيء. من أشعل عود البخور؟ ومن رتب الفراش وساعد الأب على الاغتسال في

الطشت؟ ثم الشيخ، من كان وكيف رحل بعد أن غشي علينا جميعاً؟

كل هذه الأسئلة لم نعثر على أجوبة لها إلا بعد عشرة اعوام، هنا في (جنيف) وقد التقينا بـ (هاجر). في حينها تذكرت حكايات الأب عن معجزات (الإمام علي) واستجابته لمن يستغيث به. يقول إنه لم يتوان عن إغاثة النبي يونس عندما ابتلعه حوت ويوسف عندما رُمي في بئر ومريم وهي تولدبعيسى بل إنه أغاث أمّه نفسها قبل أن تتزوج وتنجبه وانقذها من براثن أسد، لأنه ابدي وخالد. حدث مرات عديدة عندما كان الأب يمرض، يستيقظ متعرقاً من حلمه ويخبرهم أنه سيشفى لأن (الإمام) قد زاره قبل قليل. يقول إنه ذو وجه أسمر نوراني، يلفّ رأسه بعمامة سوداء، يجلله رداء ابيض، يمتطي صهوة جواد أشهب مدججاً بسيفه (ذو الفقار)، ويخاطبه بصوت مجلجل: «يا ولدي من أجل أبنائك أعينك على الشفاء»، ثم يشفى. لكن في ذلك المساء قد مات الأب دون أن ينطق بكلمة، إنما كان يغمض عينيه ويفتحهما بين آونة وأخرى كأنه يتابع حلماً سعيداً. تناوبنا جميعاً على تقبيله ونحن نحاول أن نفكّ سرّ خطوط البهجة المرتسمة على محياه كأنه راحل في واحدة من حروبه القديمة.

فصل رابع

كما ترون، صار يحلو لي أن اتخيل (آدم) كقصر عتيق قشطت عنه ريح الزمان زينته وعرته من فخامته، ولكن (امرأة القارورة) بسحرها ومهارة فنها أعادت إليه امجاده ونفخت الروح في قاطنيه وأظهرت إلى العلن جميع خباياه.

ذات مساء ربيعي بارد، زارني (آدم) في غرفتي. كنا جالسين في ضوء خافت تتخلله أنغام موسيقى من جبال الأطلس تنبعث من الجهاز، ندخن حشيشاً مغربياً ونحتسي نبيذاً أبيض. ها هو (آدم) يعود إليَّ بعد سبعة أعوام من شبه القطيعة فيما بيننا. كنا نلتقي بين حين وآخر لنتبادل الصمت والكلام. كنت أنا فقط من يتحدث عن آخر أخبار الوطن وتطورات الحرب وأطلعه على منشورات الأحزاب وأسمعه آخر النكات الداعرة ثم في الأخير أحكي له عن مغامراتي الليلية وعن لوحاتي. كان أمام هذا السيل من الكلام لا يبادر بشيء سوى أن يهز رأسه ويهمـهم، ثم يخرج ورقة وقلماً ويشرح لي آخر ما تعلمه عن استخدامات الحاسوب ومجالات تأثيره المتزايدة. هكذا هو (آدم) ما تغير منه إلا شكل تعبيره. يبقى دائماً ذلك النبي الذي يكافح رعب إحساسه بالكارثة باللجوء

إلى جنة يخلقها في خياله ويؤمن بوجودها ويعمل ليل نهار ليتدثر بنعيمها، والآن فالحاسوب هو جنته، وهو أداة تغيير العالم وإنقاذه. وقد لاحظت أنه كلما اشتدت أهوال الحرب وتلاحقت أخبار كوارثها، انكب أكثر فأكثر على حاسوبه وتعمق انطواؤه في بيته وفي أثناء زياراتي له كنت أراه مرتبكاً وقد بدا الشحوب على وجهه، فأعرف أن الكوابيس قد اشتدت في اقلاق نومه. أما أنا فقد بقيت على عكسه، فكنت ازاء اشتداد الكارثة أنطلق في عربدتي ثملا محشوشاً أفتش عن خلاص وراحة ونسيان في عيون ناس وأحضان نساء. وفي ثنايا أجسادهن أجد مأواي ونعيمي.

ها هو الآن معي في غرفتي، وبين حين وآخر كنا نكسر الصمت ببعض عبارات، بلا حماسة وعلى سبيل المجاملة، إذ كنا معاً غارقين في فكرة خفية واحدة اسمها «امرأة القارورة». في اللحظة نفسها التي عزمت فيها على الإفصاح عن رغبتي في فتح الموضوع، رمقني (آدم) بنظرة خاصة لم أدرك مغزاها؛ نظرة ذكرتني بذلك اليوم، بعد أن قادنا قطار الزمن إلى مدينة (جنيف) قبل سبعة أعوام، وحصلنا على أوراق إقامة. يومها كنا نتمشى على جسر مطل على ملتقى نهري (الرون) و (آرف). رمى (آدم) حجراً في الخط المتشكل من التقاء النهرين، وقال لي: «انظر يا صاحبي إلى هذين النهرين، كيف يفقد (الآرف) لونه وهو يصب في نهر (الرون)، ولا أعتقد أن أحدنا مستعد أن يصب في الآخر ويفقد نفسه فيه، إذن لنفترق يا صاحبي.. في أوراق اللجوء هذه وبين شوارع هذه المدينة سيشق كل منا مجراه الخاص».

أرى (آدم) الآن قد تسللت يده بهدوء إلى الحقيبة السوداء. وضع القارورة في حضنه، وراحت أصابعه تفتح الغطاء. ارتسمت على محياه ملامح قابلة عجوز تخرج وليداً من رحم. قبل أن يرفع الغطاء، رفع نحوي وجهه الذي بدا لي مغالياً في إلفته واعتياديته، كما لو كان وجهي في مرآة. أشد ما أمقت أن اكون شبيهاً به. صحيح أني شاركته في جميع تفاصيل حياته لكني كنت دائماً مختلفاً عنه. حتى تجاربنا المشتركة كانت تؤثر فينا بشكل مختلف. أمضينا أعوام المدرسة، تأتينا المعلومات معجونة بالخوف والتهديد والضرب المبرح. أستاذ (عباس) مُعلم الدين والتاريخ، كان يختار تلميذاً جديداً يوقفه أمامنا ليكون لوحة يشرح عليها سير المعارك الحربية. كانت كفه المرتجفة تنزلق على جسم التلميذ لتشير إلى جيش الكفّار النازل من الرأس وجيش المسلمين الصاعد من الفخذ، ليلتقيا أسفل البطن في معركة فاصلة. وكان هذا الأستاذ يأمر التلاميذ المذنبين بأن يصفع أحدهما الآخر بقوة، ومن يتوانى سينال منه عقاباً أشد. لكن النتيجة: هو مسالم وأنا عنيف. كم من المرات تدخلت لإنقاذ (آدم) من براثن عصابة من الأشقياء. أنا أيضاً كنت شقياً، وعندما لا أجد أحداً يهاجمني، كنت أسأم وأختار تلميذاً ضعيفاً أهاجمه. تعلمت منذ الصغر أن هناك خيارين: إما أن تكون مسالماً ضعيفاً مهاناً، وإما أن تكون قاسياً قوياً مشاكساً.

رفع الغطاء بمهارة مفتعلة، فنفث من القارورة ضباب خفيف ورائحة مختلطة من عطور شرقية وتعرق بشري. خلال لحظات كان الضباب يتجسد بشكل كائن غامض، وتناهى صوت أنثوي

هامس، مزيج من حفيف حشرة وهمهمة طفل يغفو وفحيح أفعى وتنهدات صبية.

لم يسبق لي أن رأيت مشهداً بذلك القدر من الوضوح والتفصيل. عبر جو الغرفة المعتم بدخان سيارات ولفافات حشيش مغربي وأنفاس مخمَّرة ببهارات الشرق ونبيذ سويسري، تجلَّت (هاجر) كواحدة من آفات جمال خرافي طالما صنعت صورتها من ذكرى (سجينة) ما كفَّت عن زيارتي في ليالي حُمَّتي. الآن قد عرفت أن سرّ رعب المؤمنين لا يكمن في نيران جهنم وحدها، بل في حسرتهم على حرمانهم الأبدي من لذة تلك الحوريات. فإني لو ضاجعت إحداهن سوف لن أخرج منها أبداً. سأهجر باقي ملذات الفردوس من أنهار عسل وخمر ولبن وقصور فارهة ومآدب عامرة، وأغور في أعماق حوريتي وأمضي خلودي في رعشة سرمدية!

لمحتني فارتسم حياء على محياها وجسدها. مثل حمم فوارة كانت تنتثر خصيلات شعر حنيَّة على نهديها. غطت عينيها بحاجبيها وأسبلت كفيها تحت سرتها، وأمالت رأسها بعفوية امرأة ألفت جلال جمالها حتى أنها نسيته.

التفتت إلى (آدم)، فمطَّ لها شفتيه وهزَّ رأسه صامتاً وأطاعت أمره بتلقائية. ناولها من حقيبته السوداء ثوباً شفافاً، ارتدته، ووقفت شامخة بهيبة خاشعة. كان ثوبها أبيض مرقطاً تنعكس عليه ألوان سيارات مارقة ومصابيح سينما مقابلة. بدت كآلهة بابلية أسقطها التاريخ في عصر أنوار ودخان ومدن مكتظة.

أشار إليها فجلست في وسطنا على وسادة. ثنت ركبتيها على طريقة أميرات العرب، واتكأت بظهرها على النافذة. توهج شعرها بالتماعات حمراء وخضراء وفضية، ثم ناولها لفافة وكأساً، هامساً لها: «احكي».

جرعت من النبيذ واستنشقت بضعة أنفاس. رفعت رمشيها لتدع سيول عينيها تجتاح فضاء الغرفة. راحت ترسم بأصابعها لوحة غرائبية من دخان متصاعد. كان لسانها يتحرك بين شفتيها كقائد يوجه فرقة كلام في حنجرتها. بدا صوتها مزيجاً منسجماً من ألحان متناقضة تُنشد في دور عبادة وعهر وقصور أمراء وأكواخ رعاة. راحت تحكي وتحكي حتى أواخر الليل. خفتت الأضواء والأصوات في الشارع، وتسلل نسيم إلى الغرفة عابقاً بروائح فجر مُبلل بمياه بُحيرة «ليمان» المجاورة.

لم انتبه كيف جرى الأمر. كما لو كنت غريقاً أمضى عمره في الاختناق ومكافحة الموت، وجد نفسه فجأة يطفو على جرف جزيرة تائهة؛ هكذا وجدتني وحيداً في الغرفة أطفو على جسد (هاجر). أين اختفى (آدم)؟ لا أدري. كانت مستلقية عارية وأنا راكع بجانبها. كنت منكباً على رسم لوحة خليعة على صفحة جسدها. إبهامي كان ينساب بهدوء حذر على ملامحها بدءاً بمحيط جبهتها، حاجبيها، عينيها، أنفها، شفتيها، حنكها. هبطت إلى عنقها وكتفها، وأنهيت رسم ذراعيها وأصابعها، وصعدت إلى نهديها، وظللتهما حتى انتفخت حلمتاها. من أجل إضفاء مسحة أخيرة، رحت بشفتيّ ألونها وأبرز ظلال سرَّتها وعانتها وفخذيها حتى أصابع قدميها.

كان لها جسد مفصل بمقاييس تتطابق وذوق حلمي الذي ما

وجدته في أية امرأة. لم تكن بشرتها سمراء ولا شقراء إنما بلون الخبز الحار. ولم تكن نحيلة لتوحي بقحط وشحّ وفُقر، ولم تكن سمينة لتوحي بنهم وشراهة وإسراف. كانت في الوسط، كأن الذي خلقها صبَّها من أجساد أجمل مخلوقاته: طويلة القامة وقليلة الامتلاء. نهداها بحجم رمانتين كبيرتين، تزينهما حلمتان منتعظتان رطبتان بلون الشاي. خصرها دقيق، وردفاها وفيران ثريان على هيئة إجاصة مفشوقة، وعندما تحسستهما بأصابعي تموجا بارتجافات كصفحة بحيرة مسَّها نسيم.

جمالها اعاد إلى ذاكرتي ما حدَّثني به (آدم) يوم التقاها لأول مرة منذ أسابيع. قال إن سؤالاً قد انبثق في رأسه: أين يكمن الالهي في الإنسان؟ أمضى عمره وهو يفتش في الناس عن العظمة المقدسة الكامنة في أعماقهم. كان يحاول أن يتجاوز خطوط العمر المرسومة على وجوههم وملامح الأسى والقبح والقسوة والكبرياء والوضاعة وأوهام الكائن الأعلى والأدنى. كان يغوص عبر ظاهر البدن، يفتِّش في أعماقه عن الخالد، عن الذرَّة المتوهجة، عن الروح المطلقة التي يتكور حولها البدن الإنساني بأحشائه الهالكة وعناصر ضعفه وفنائه، يحاول أن يزيل عن الوجود عبثيته وعن الموت رُعبه، يتخيل الروح الخالدة شبيهة بعارضة أزياء تختبىء بين زمن وآخر خلف ستار الموت لتخلع جسداً عتيقاً وترتدي جسداً جديداً تعرضه أمام احتفال الحياة لأعوام معدودة، ثم تعود من جديد تختبىء وراء ستار القبر بانتظار جسد آخر.

وها أنا اشاهد عارضة الأزياء التي حدثني عنها، ولكن ميزة (امرأة القارورة) هي أنها لا تبدل ثوبها الجسدي بل تلبسه من

جديد في كل مرة تخرج فيها من القارورة. روحها خالدة، وجسدها خالد أيضاً، تجدده وترتديه منذ آلاف الأعوام. عندما تختبيء في القارورة تستريح روحها ويغتسل بدنها بمياه الشباب والديمومة. في كل مرة تعود إلى القارورة كانت تموت، وفي كل مرة تخرج كانت تولد. الموت لم يكن نهايتها، والميلاد لم يكن بدايتها. ما هما إلاّ نقطتان في دورة عادتها الأزلية، تفني العتيق وتحيي الجديد، وتجعل الروح في انسجام أمثل مع الجسد.

استلقيتُ فوقها. قبلت عينيها واحتضنت ثديها ورضعت. طعم حليب العشيقة أحلى من حليب الأم. إنه مزيج من نكهات حنان وفُسق. تركت أصابعها تنساب لتولجه في منجم رطب حار. مع انتشار حرقة الشبق، كانت رؤى حكايتها تتنامى في خيالي. كانت تعض بأسنانها شفتيّ وتهصر بكفّيها لحمي، وروحي تنزلق بالتدريج في متاهات متصاعدة. فحيحها الوحشي استحال إلى رموز صوتية تختصر تاريخ آلاف أعوام وأقوام وأفراد إلى لحظات لذة السرمدية. مع اهتزازات جسدينا كنت أحس بجسمي يزداد ثقلاً وينجذب بقوة خفية نحو أعماق هوّة كونية سرية. كأني ذبت إلى سائل تبتلعه جفرة فضائية مركزها جسد (امرأة القارورة). انحدرت في متاهات أشبه بغيبوبة الساقط في هاوية. كزمن حلم يختصر آلاف الأحداث والصور في بضعة أعشار الثانية، وكحياة (ميكروب) لا تتجاوز لحظات وتبدو له ربما أغنى وأطول من حياة إنسان.. هكذا عشت حياة واحد من أسلافي خلال زمن كل عام منه يعادل لحظة شهيق وزفير من فحيح (هاجر):

كنت طفلاً مستلقياً جنب أختي، بين خـرق عطنة وفي أحضان عربة خشبية مهترئة تتمايل بنا بتناغم مع تمايلات أرداف بغال تجرها. على بعد بضعة خطوات كانت تتقدم العربة كلاب ذئبية تتشمم أتربة دروب وعرة بحثاً عن آثار قوم هاربين. كانت هذه الكلاب، بين حين وآخر، تلتقط أشياء لا مرئية من بين تجاويف التربة ثم تتشاجر بعنف كأنها تمزقها بين أنيابها.

كنت طفلاً حينما بدأت أسئلة أولى تتسلل كنقاط ماء عبر سقف رأسي: «من نحن؟ من هؤلاء الهاربون؟ لماذا نتبعهم مع أمي وأبي منذ أعوام وأعوام؟».

شذرات من أجوبة تمكنت من انتزاعها من أمي وهي تفلي شعري بحثاً عن حشرات تائهة في رأسي: «امبراطورنا العظيم وأبو شعبنا ومخصب آلهتنا الأم، أمر أباك أن يلحق الهاربين ويتقصى أخبارهم. لقد أقسم أبوك أمام ملكنا وآلهتنا وكهنتنا بأنه سوف يُحرم من بركة خصبهم ويُقصى من نسلهم إن لم يخلص في مهمته بتتبع الهاربين حتى نهايتهم المحتومة..».

في ليال، كان الترحال يضطرنا إلى المبيت في قرية هجرها أهلها بسبب طوفان وطاعون، أو في مدينة قد دمرتها قبائل غزاة. لكي يكافح أبونا وحشة المكان ويطرد الرعب من نفوسنا، وبعد أن نؤدي جميعاً صلاة العتمة، كان يجلسنا حوله ويحكي لنا عن الهاربين الذين لا يعرف أحد عددهم أو طبائعهم أو دينهم... أما زعيمهم فإنه رجل يعجز اللسان عن وصفه ـ هكذا يقول أبي ـ وتتخلل صوته حينئذ ارتعاشة خفية. إنه جبار مهيمن يهابه جميع أبنائه وأتباعه، لا يضاهيه في جبروته وفحولته إلاّ أبو شعبنا وامبراطورنا الأعظم ومخصب آلهتنا،

يعشق السلاح والنساء، خلّف من الأبناء ما يفوق عدد ضحاياه في الحروب، ما رأى عذراء إلّا وكان أول من يخصبها، وما وطأ ساحة حرب إلا وكان سيفه أول ما ينضح دماً فوق ترابها. قامته العملاقة تناطح ذرى أعلى الأشجار، وبشرته سمراء كأديم الأرض، وعيناه كبئرين بلا قاعين، أما صوته فيأتيك من دواخلك.

في هذه الأثناء كان يقشعر بدني، فأحدق في وجهي أمي وأختي بحثاً عن أجْوبة لأسئلة لا أستطيع تكوينها وإدراكها. وكنت أحبس دموعاً حارة بينما يدي تمسك قصبة وتروح تخطّ بها على الطين وجهاً غرائبياً شبيهاً بالذي وصفه أبي. وعلى ضوء النار المتماوج كان ذلك الوجه المحفور يكتسي لوناً نارياً وتأخذ ملامحه بالظهور مع الضوء وكأن الحياة قد دبت فيه.

هكذا مع الأعوام وتوالي حكايات أبي، واستمرار كلابنا في لهاثها بتعقب الهاربين وأشيائهم اللامرئية، راحت ببطء سري تنمو في مخيلتي صورة زعيم الهاربين.

والحقّ أني كنت مثل أهلي، أصلّي بخشوع وقلبي مفعم برهبة أمام صَنَمَي ملكنا وآلهتنا، إلاّ أن صورة زعيم الهاربين شرعت تحتل حيزاً متنامياً في أعماق روحي. كم من مرات أحسست بعار ووجل وأنا أحدق إلى وجه صنم ملكنا فأرى ملامحه تتغير تدريجاً إلى ملامح زعيم الهاربين.

ذات يوم كنت مع أختي نلعب بعيداً عن أبوينا. كنا على شاطىء دجلة نأخذ طيناً أحمر ونصنع منه أشكالاً بشرية وحيوانية، إذا بنا فجأة نجد أنفسنا قد انكببنا، دون قصد، على

صنع تمثال بشري بطول ذراع يشبه رجلاً عظيماً، رؤياه جعلتنا نولول باندهاش: «هو.. نعم هو!».

كان زعيم الهاربين بذاته.

منذ ذلك اليوم، رحنا، أختي وأنا، نختلق الأعذار لكي نغيب عن انظار والدينا. نخرج صنم زعيم الهاربين، نصلي أمامه خاشعين مترنمين بأناشيد خضوعنا المطلق له وإيماننا به منقذاً لنا من حيرتنا. صنعنا معه بعد ذلك صنماً لآلهتنا الأمّ لتتكامل صلواتنا وتتناغم ترانيمنا في خصب وخلود.

ظلت عربتنا تسير بنا مخترقة أراضي وأعواماً، تقودنا نحو الشباب، وتقود أبوينا نحو الشيخوخة. كلاب ماتت لتخلفها كلاب من نسلها، استمرت في تشمُّمها الدروب وتكالبها على نهش أشياء لامرئية، بغال شاخت ونفقت لترثها بغال تتبع بلا كلل كلاباً ودروباً. ما مرَّ عام إلّا وكرر أبي وعده أن يكون عامنا القادم ميعاد نهاية رحلة بحثنا. سنعود إلى عاصمتنا بين أحضان قومنا لنحكي لهم أحداث غربتنا الطويلة. سنبنتني هناك بيتاً دافئاً من عطايا الأمبراطور مباركاً بخرزة أفعى ومحروساً برأس وعل.

في عصر يوم قائظ، أصرّ أبي على مواصلة المسيرة رافضاً أن نستريح في ظلال بساتين حمضيات مطلة على النهر. قبل الغروب لاحت لنا أطلال مدينة كأنها تنبجس فجأة من بين الهضاب القاحلة. كانت بقايا قصور خربة عراها الزمان من حيطانها وزينتها وأحشائها البشرية، ولم يبق منها غير أعمدة

منتصبة وصخور مبعثرة وتماثيل ثيران مجنحة برؤس بشر وروائح عطنة تهمس عبر الريح بحكايات أقوام غابرة.

توقفت عربتنا قرب نصب ضخم لأسد يزني بامرأة. قالت أمي إنها بقايا مدينة كان يقطنها أسلافنا وقد محقتها الآلهة بعد أن سلطت عليها طوفانات وطواعين وجيوش أعداء، لأنهم بطروا وفسقوا وانتهكوا حرمة الآلهة وقدسية الآباء. أبي تركنا واختفى بين الأطلال بعد أن همس لأمي بكلمات مبهمة جعلت الحزن يرتسم على محياها. عندما اصطبغت المكنونات بضياء الغسق ظهر أبونا منحدراً بين الآثار وبصحبته شيخ يشبهه وتتبعهما فتاة مليحة فيها الكثير من أوصاف أختي، وهي تحمل على ظهرها صرَّة متاعها.

هكذا تمّ الأمر بصورة مباغتة ما حسبناها. في ذات المساء تمت طقوس زواجي من ابنة الشيخ، تحرسنا أصنام ملكنا وآلهتنا. بين دموع الوداع وشهقات الدعاء والرجاء، رحلت اختي مع الشيخ حيث تنتظر عربتهم عند الطرف الآخر من الأطلال، ليزوجها إلى ابنه الذي يشبهني والذي أمضى مع أبويه وأخته حياة ترحال وبحث عن هاربين أزليين.

أمضيت ليلة عرسي سابحاً في بحر لذة تتخلله أمواج حزن، بين أحضان زوجتي وذكرى فراق أختي. عندما شرع وميض السحر يعلو من ضفة دجلة الشرقية ويضفي على المياه حمرة ذهبية فتنعكس على صفحته هياكل نخيل كجثث غرقى ينبجسون من القاع، ناداني أبي واختلى بي عند الضفاف. دون مقدمات كثيرة قال بصوت مبحوح إني هذه الليلة صرت رجلاً مسؤولاً عن حفظ ديمومة نسلنا، وإني كذلك أستحق أن احمل عبء

المهمة التي أوكلت إليه. قال إن الزمن قد أنهكه والعمر ما عاد يعينه على إتمام المسيرة. ليس أمامه غير أن يبقى مع أمي على ضفاف النهر تحرسهما بقايا الأسلاف حتى يوم أجلهما. أشار إلى نحو الجنوب وقال هناك ترتمي عاصمتنا. عليّ أن أرحل إليها مع زوجتي لنطلب الغفران من الملك الأب والآلهة والأم، نعتذر عن آبائنا الذين ما تمكنوا من إتمام المهمة، إذ خذلهم العُمر قبل أن يعثروا على الهاربين.

بعد أن شدَّ على كتفي، أخرج من عبه قارورة خشبية، وعلقها برقبتي قائلاً إنه ورثها عن أسلافه وهو يورثها لي لأورثها أنا بدوري إلى أبنائي. قال إنها سر سأكتشفه بنفسي عندما أفتحها في خلوتي. ثم قبلني وقادني إلى العربة وقد أعدها لنا. ودعته مع أمي، رحلت وبجانبي زوجتي، تقودنا الكلاب والبغال على شاطيء النهر المنحدر نحو الجنوب.

عند العصر، دخلنا العاصمة من بوابة شامخة مكتظة بعربات عسكر وتجار تقودها خيول، وعربات أخرى تجرها بغال، وقوافل جمال، وحمير مزارعين. كلما توغلنا نحو مركز المدينة، كان الزحام يشتد ونداءات الباعة تعلو ممتزجة بمزايدات نخاس وتهكمات سحرة ومهرجين مع قرود وأفاع وصبايا ذوات وجوه مكشوفة وصدور شبه عارية.

أوقفت العربة، وطلبت من زوجتي الانتظار. ترجلت تابعاً كلابي تشقّ دربها بصعوبة وسط الحشود. كنت التقط كلمة من هنا وعبارة من هناك، وأمكث منصتاً لأحاديث متقطعة كانت تتمتم بها نساء متلفحات بالسواد. بدا لي ما أسمعه غائماً بين وهم وحقيقة. لم أشأ أن أصدق أذني، قلت لعلّي ما فهمت.

تجرأت وطرحت السؤال على بائع أسلحة وعقاقير فحولة يدعي أنه صنعها بنفسه من جماجم الاعداء. منه سمعت الحقيقة واضحة رنانة كقعقعة سيوفه: «زعيم الهاربين استطاع هو وقومه الاستيلاء من جديد على السلطة. أعلن نفسه امبراطوراً وأباً للشعب وفحلاً مخصباً لآلهتنا الأم! أما الأمبراطور السابق فقد فرَّ مع قومه وصار زعيماً للهاربين...».

تسمرت مشدوهاً جاهداً أن استوعب هذه الحقيقة الجديدة التي ما حسَّب بها أبي. تشتتت مشاعري بين غمّ وفرح، بين شك ويقين، بين خيبة من أجل أبي وغبطة من أجل نفسي. ها هو إلهي السري قد صار أمبراطوراً وأباً للجميع. الآن سيتحقق املي بالاستقرار في أرض يقطنها قومي ويحكمها معبودي. لتُمحق إلى الأبد خطيئة أسلافي.. لن اظلّ رحّالاً تنبذني مدن وتقودني كلاب وتُكبلني عهود ورثتها عن أهلي.

من دون أن أدرك كيف، كنت منساقاً بقوة كلابي التي ما كفت عن الجري والتوغل بين الحشود المتدافعة. وجدت نفسي فجأة أمام باحة كبيرة مطوقة بالعسكر وفي وسطها تجمع كهنة ورجال حاشية يحيطون عرشاً فخماً جلس عليه الامبراطور الجديد.

قبل أن تتاح لي لحظة تفكير، اندفعت كلابي برعونة ووحشية نحو الأمبراطور وحاشيته. لكن العسكر كانوا أكثر منها سرعة وشراسة فانقضوا عليها ومزقوها بسيوفهم ورماحهم، ثم انهالوا عليّ ركلاً وضرباً حتى غبت عن الوعي.

عندما أفقت كان صوت الحارس يناديني عبر فتحة صغيرة. ناولني صحن حساء وأمرني أن أصمت حتى يأتيني قرار

الأمبراطور، وأشار إلى فجوة صغيرة في أرض الزنزانة يمكنني استخدامها لقضاء الحاجة.

لم أكن أدري الوقت ليلاً أو نهاراً حينما فتحت القارورة في عتمة الزنزانة. كنت قد نسيتها تماماً حتى فوجئت بوجودها معلقة في رقبتي مختفية تحت بقايا ثيابي التي مزقها العسكر عن بدني كشجرة قضم الجراد وريقاتها. فقط عندما خرجت تلك الإلهة الخلابة انتبهت إلى البدر يطل من كوة صغيرة في أعلى الجدار. رأيتها متجلية أمامي بفتنتها وسحرها فشعرت كأن روحي تتسلل من وحشة قبر وخوائه إلى دفء رَحم وخصبه. بعيداً عن عيون الحراس، تعالت أنفاسنا وتمازجت بصرير حشرات وضوء بدر متكىء على قضبان. طفتُ مع أمواج أزمان بلا ملوك ولا آباء ولا كلاب ولا هاربين.

ذات ليلة كنت مستلقياً مع إلهتي قرب الفجوة، عندما تهادت إلي أصوات حمحمات وشهقات كطيور في أعشاشها. دنوت فمي من الفجوة وصرخت: «من هناك؟».

بعد لحظات صمت، سمعت من يصرخ تحت الأرض: «نعم أسمعك.. من أنت؟».

أجبت بسرعة: «أنا سجين.. وأنت؟».

أتاني الجواب: «أنا.. أنا أيضاً.. أنا..».

كان جواباً من عشرات الأصوات، ربما مئات، أصوات رجال انتشروا تحت الأرض ليعلنوا جميعهم أنهم سجناء مثلي.

عبر قنوات الأرض تبينت لي الحقيقة: زنزانتي محاطة بعدد هائل من زنزانات تحتوي رجالاً قابعين مثلي بانتظار مجهول.

عبر فجوات أرض مظلمة عابقة بعتق وموت اكتشفنا هوية مشتركة: إننا سجناء امبراطور قدسناه وعبدناه عندما كان زعيماً للهاربين. إننا من ذرية آباء أمضوا دنياهم في تعقب كلاب طائشة.. وإن كلاً منا تزوج أخت الآخر، ولنا أمهات يندبن خيبة أزواجهن عند خرائب الأسلاف.

لم أدرك كم أمضيت من الزمن عندما فتح الحراس الباب وقادوني مثل كومة لحم ورموني أمام الامبراطور. بعد إعلان غفرانه لخطيئة مشاركتي أهلي في تتبعه عندما كان زعيماً للهاربين، عمّدني الكهنة بمياه الخصب الجارية من تمثال إلهتنا الأم. ولكي أتوب عن جميع خطاياي وخطايا آبائي، أمروني أن الحق الهاربين وأتقصى أخبارهم. أقسمت أمام ملكنا وآلهتنا بأني سوف أحرم من بركة خصبهم وأقصى من نسلهم إن لم أخلص في مهمتي بتتبع الهاربين حتى نهايتهم المحتومة..

في الفجر، جلبوا لي زوجتي التي كبر بطنها في أثناء سجني. أركبونا عربة تجرها بغال وتقودها كلاب وقالوا: ارحل ولتحمك عيون ملكنا وإلـهتنا وتباركك صلواتك لهم. خارج بوابة العاصمة، كانت الأراضي القاحلة مرقطة بأعداد وأعداد من العربات التي تجرها بغال وتقودها كلاب تنهب الدروب نحو آفاق مجهولة. لكني ما أخذت أي درب، إنما اتجهت بعربتي إلى النهر. عند الشاطىء فككت البغال وتركتها تسير وحدها تابعة الكلاب التي ما كفت عن عراكها من أجل أشياء لا مرئية. انسابت بنا عربتنا فوق المياه، وعلى ذراعي تغفو زوجتي وتحت

إبطي تحيا قاروورتي من نبضات قلبي. كان بدر ليلتنا متألقاً بين نجومه ويطوف معنا في سماوات تقودنا إلى سفاوات. كان دجلة ينحدر في واديه ليمنح خصبه لأراض وأقوام تناسلوا حول ضفافه منذ حقب تاريخ سحيق، تتغير أسماؤهم ووجوههم ولغاتهم وأديانهم إلاّ أرواحهم تظلّ تتناسخ خالدة في ذات الأنهار والأطيان ونفحات الريح، تعالى في الفضاء عويل نسوة يندبن غياب المنتظر، وينثرن فوق الماء صوان شموع منسابة نحو شواطىء وخلجان أزلية الجريان.

صحوت ليكون العويل صفير سيارة إسعاف تمرق في الشارع. وجدت نفسي في غرفتي مضطجعاً وحدي، وعبر النافذة كان يأتيني الصفير يخرق صمت المدينة الغارقة في إغفاءة صبيحة يوم الأحد. ليس هناك من أثر لـ (هاجر) غير عطر مسك يعبق مع بقايا روائح ليلة حمراء.

فصل خامس

لعلكم تتفقون معي أن (آدم) راح ينزلق أكثر فأكثر في متاهات (هاجر)، وينقاد بلا حذر إلى نزواته معها. في كل كلمة تلفظها، تجتمع مفاتن ومغريات نساء عصور عاشتها. دون أن يخبرني بهدفه الخفي طلب مني أن أعثر له على حفلة مناسبة يمكن أن يرقص بها مع زوجته (مارلين)، وتعهد بدفع بطاقة دخولي.

أتذكر أنه كان مساء سبت ربيعي. بعد أن تعشينا معاً في بيته وبرفقة زوجته، أحتسيت مع (آدم) نصف قنينة فودكا والنصف الآخر حملته لنا (مارلين) في حقيبتها. ثم هيأنا لفافة حشيش لندخنها في الحفلة. لم تكن (مارلين) من مفضلي الخمور والحشيش، لكنها كانت مبتهجة معنا بطفولة واضحة. أخبرتني أنها منذ فترة طويلة لم تذهب إلى حفلة راقصة. طالما حسدت (آدم) في سري على زوجته رغم عدم رغبتي في الزواج إطلاقاً. أكثر ما يجذب فيها، خصال إنسانية ترغم رجلاً مثلي على أن يعاملها برقة ويرتاح لطلب عون منها، وإن كان لا يحتاج إليه.

عندما وصلنا إلى قاعة (البالاديوم) كانت الساعة تقارب

العاشرة مساء. كانت حفلة صاخبة بشباب وموسيقى جاز حديثة. ما إن جلسنا حتى همس (آدم) في أذني: «عندي مفاجأة، تعال وياي..».

لم أكن ادرك ما يبتغي. ألحّ عليّ أن أجد له زاوية قريبة مستورة. حينئذ فقط انتبهت إلى الكيس الذي كان يحمله. من باب يحاذي باب المرقص صعدنا سلالم عمارة خالية حتى الطابق الثالث. هناك أخرج القارورة من الكيس وهو يبتسم بطريقة شيطانية صار يتقنها عندما يسكر. أطلق سراح حوريته والبسها ثوبها وحذاءها ثم لفّ فوطة حول رأسها فتدلت كراكيش سوداء حول جبهتها فبدت كأميرة جنوبية.

بعد أن قمت بتقديم (هاجر) إلى (مارلين) على أنها إحدى صديقاتي، حرصت على مرافقتها وهي تتهادى بقامة شامخة وخطوات ملكية وئيدة جعلت رؤوس الحضور تلتفت إليها. كنت أتساءل عما يجول في دواخلهما: هل هي التي أقنعته بلقاء زوجته أم هو أراد إقحامها في تفاصيل اجتماعية لم تثر اهتمامها من قبل.. لماذا يجب أن تتعرف بـ (مارلين)؟ لم تذكر في جميع حكاياتها أنها رغبت يوماً في التقاء زوجة أحد عشاقها. أيكون هذا دليلاً على رغبة في الخروج عن سلوك تعودت عليه منذ القدم؟ لعلها خطوة أولى نحو خطوات أعمق في درب مجهول العواقب. أليس من المنطقي أن حياتها ستغدو صعبة لو أنها عايشت تفاصيل حياتنا اليومية؟ ستهبط من علياء وجود خالد إلى تفاصيل دنيا محبوكة من غيرة وتضحية ومنافسة وصدق ونفاق ومراوغة ورغبات امتلاك.. وهنا يكمن الخطر، لأنها ستتحول حينذاك إلى امرأة أرضية تهتم بالعادي

وتمارس من خلاله لذة وجودها. ليتها تعلم أن ما تتضمنه حياتنا من شعارات عظيمة ومبادىء وأحلام كبرى ما هي في الأساس إلّا أقمشة براقة محاكة بخيوط من تفاصيل يومية عادية ومشاعر خفية ونزوات إنسانية! لو أنها تدري أن طبخات الحب والوفاء يتحسن طعمها كلما أضيفت إليها توابل غيرة وكره وامتلاك. في أشد الأحقاد ثمة نكهة حُب، وفي أسلم المبادىء ثمة نكهة حرب، وفي أقدس المشاعر وأطهرها ثمة نكهة مجون وشهوة.

موسيقى متصاعدة من الأرجاء سارعت في تصاعد مفعول الخمرة والحشيش. كانت القاعة تدور والجدار ينشق عن فضاء بلا أفق. كأن الجميع يرقصون على كوكب طائش يهيم في كون، فأصابني خوف لذيذ من السقوط في فراغ.

رأيت (هاجر) وقد أثملتها الخمرة وأنفاس الحشيش، كانت تقترب من باحة الرقص ونظراتها تنساب بخفر، تارة ناحيتي، وتارة ناحية (آدم ومارلين). إنها ملكة ترقب أتباعها. كنت ممتلئاً بتردد غير عقلاني من الاقتراب منها. لا أدري كيف أفسر هذا،كأني لسبب غامض خجلت من (مارلين). وقعت فريسة تأنيب ضمير. لعل علاقتي مع (هاجر) قربتني إلى (مارلين). لست على يقين.

كنت واقفاً عند ناصية مرتفعة قليلاً، تجعلني أشرف على الراقصين، وأتلقى أصوات مكبرات الصوت بانسجام ووضوح. عينا (مـارلين) كانتا مفتوحتين على سعتهما وتشعان خضرة وحباً نادراً كفيلاً بأن يمنح زوجها السعادة ويغنيه عن أية امرأة.. لكنه مثلي. في روحه وجسده ثمة ينابيع شهوة فياضة

تكفي لإرواء أكبر الواحات والفيض نحو واحات أخرى. في الماضي كانت ينابيع ملذات (آدم) تفيض عن واحة زوجته وتسيل ضائعة في صحارى من السؤال والغموض، لكن (امرأة القارورة) أتت لتجمع في مجراها فيضانه وتصنع نهراً يسقي مدناً وأقواماً ويهيم في بحار وبحار.

بدات (هاجر) تنساب ببطء ثعباني مع موسيقى زنجية متصاعدة. راحت بالتدريج تفك لجام أعضائها وتدعها تتضوع بأنوار وأنغام ملونة. كأنها تقلد بحركاتها نافورة البحيرة: يندفع الماء بطيئاً واطئاً ثم ينمو ويتصاعد ويشتد بعنف حتى عشرات الأمتار. إنه مشهد ولادة ونمو.

عينا (آدم) كانتا ترقبان (هاجر) وهو يراقص (مارلين) التي بان قليلاً انتفاخ بطنها رغم ثوبها الفضفاض، متمايلة بحذر خشية على جنين ما تجاوز بعد شهره الثالث. كان جسدها يتراقص دون ابتذال وبعنف أنيق كأمواج هادئة متناغمة. هل تصدق لو قيل لها إن جنينها ما زُرعت بذرته في بطنها إلا بفضل هذه المرأة التي أراقصها؟ بخصبها الخالد منحت أماناً كلياً لـ (آدم) وأطلقت عنان شهوات روح ملجومة وجعلت بذرات خصبة تنساب بخدر لذة حقيقية كان ينتظرها طيلة عمره. حتى أنا بدأت في الآونة الأخيرة تراودني فكرة الإنجاب. أشد ما أمقت في الحياة دور الأبوة، لكني في أحلام يقظتي كنت أنساق إلى رغبة عابثة أود بلهفة لو أنفذها: أن أمنح بذوري إلى (بنك الاخصاب) ليكون لي أبناء من عدد لا يحصى من النساء. يصحبني حلمي إلى ما بعد عدة أعوام: حين أكون أشيب وقوراً، أرى فجأة أمامي عشرات الأبناء يتصلون بي ليعلنوا لي أني

ابوهم (البيولوجي). سأكون سعيداً لأني زرعت روحي في أناس سيخلفوني ويحافظون على ديمومة نسلي. سأتمتع بتبعيتهم لي وشعوري بأني أبوهم من دون أن أضطر يوماً إلى ممارسة دور مقيت. ألا تكون إذن غريزة الأبوة تعبيراً عن رغبة الجسد في أن يكون ازلياً وسرمدياً مثل الروح؟ أيكون الخالدون هم بغير خصب، ووحدها الأجساد الفانية تحمل خصبها في داخلها لأنها بالخصب تكافح موتها؟ لعل الجسد يمضي أعوامه وهو يشقى من أجل أن يكون خالداً ومطلقاً مثل الروح، وما الموت إلا محاولة الجسد ترك المكان لجسد أعلى وأسمى وأقرب إلى الروح؟ هل هذا يعني أن سنة الوجود الواقعي هذه الحركة الأزلية من أجل الوصول إلى الوجود الأسمى والأرقى؟ أليس الإنسان إلاّ مرحلة عليا في هذا الوجود المحسوس لأنه هو وحده من شَعَرَ وفَكَّرَ وتمتع بخيال واقترب من ذلك الوجود الأعلى اللاّ محسوس؟ هل سيؤدي بنا الرقي البيولـوجي وتناسلنا لحُقب وحُقب حتى تبلغ أجسادنا كلياً ذلك الوجود الأعلى المطلق؟ حينها سنصبح خالدين نتناسل ونتناسل دون موت ولا ولادة.

انتبهت إلى أن كل واحد منا، نحن الأربعة، كان نظره مشتتاً بين الثلاثة الآخرين. كنت أشاهد (مارلين) و (هاجر) و (آدم) كيف تستحيل أشكالهم إلى تكوينات هلامية من ضوء ودخان وموسيقى. كنا بحركاتنا نخوض حواراً حنوناً وهمجياً، مفعماً بأسى وعتاب وصراع رغبات. صار كل حركة من جسد أحدنا استجابة لحركة الآخرين. (هاجر) قد توسطت الباحة تحت ضوء أبيض يشع بهالة بنفسجية. أسبلت جفنيها إلى الأرض، ورفعت ذراعيها، وشرعت تتمايل بحركات أفعوانية جعلت من

نهديها وردفيها يعربدون للانعتاق من ثوبها الشفاف. في كل حركة تبديها كانت ترتفع عن الأرض وعيناها تبرقان بضوء خلاب يغمر الفضاء. كما لو في حلم، أخذ الآذان يصدح في وسط إيقاعات افريقية سنغالية: الله أكبر.. الله أكبر... حيـ ... وامتد أنين بلال حبشي عبر قرع طبول وأنغام قيثار إلكتروني يستنجد بجليل جبار ليعين الإنسان في حيرته الأبدية. بدأ ينبجس أمامي مشهد غرائبي: كأننا في غابة بين قوم من حُقب غابرة، نمارس طقوس عبادتنا في حضرة آلهة ضوء وموسيقى. كان جسمي يتفتت ويفقد وزنه.. يذوب ويتمدد مع أجساد الآخرين. نستحيل بالتدريج إلى خلايا تنتشر في الغابة. مثل طيور نحوم أسراباً حول (هاجر) ونحطّ على جسدها. نخترق اللحم، ونسبح بالدم، ونذوب في كون من ماء ونور. صارت (هاجر) بحيرة، ونحن صرنا ثلاثة أنهار نرفد فيها، والراقصون صاروا غدراناً تصب فينا...

وثبت من صفنتي فجأة على صوت (آدم) كان يخضني وهو يسألني بعياط مخنوق بضجيج: «هاجر.. ماشفت هاجر..؟».

فتشنا عنها في الأنحاء من دون العثور على أثر. إذن لقد صدقت مخاوفي. ها هي تمضي بعيداً في التمرد على طباعها. يقيناً أن غيرتها قد دفعتها إلى هذه النزوة. فكرنا أنها انساقت لثملها وراحت تتسكع في المدينة. انطلقنا إلى البحث عنها بعد أن بعثنا (مارلين) في تكسي إلى الدار. كنت وراء (آدم) أتبعه وهو يحوم في عتمة ما بعد منتصف الليل بين الأزقة وعلى ضفاف نهر (الرون). كان مثل كلب مسعور يلهث ويثب هنا وهناك محدقاً في الزوايا المظلمة وبين وجوه النساء بحثاً عن

حوريته. كانت السماء مكفهرة بغيوم سوداء تبعثرها ريح مبللة برذاذ مطر. اتكأ على السياج، وترك نظراته تغيب في أعماق المياه، وتنحدر معها جنوباً نحو مصبها في البحر. كان يدمدم هامساً يسأل النهر ويشكو له بهمهمات غير واضحة. حركاته كانت توحي أنه في ساعة مصيبته هذه يتمتع بحاسة شمّ تفوق المعتاد، وأن حواسه جميعها كانت في اقصى نشاطها لتلقي أية إشارة. تهالك على مقعد بعد أن أعياه تعب وبرد وقلق. جلس واضعاً رأسهِ بين رجليه وساعديه وأجهش بنحيب مكتوم. كان الشارع مضاءً بمصابيح فندق (هيلتون) ويضجّ بعصف ريح وصخب مكتوم قادم من علب ليل مختبئة.

كلما اقتربت من آدم، كنت أميز بعض كلمات همهمته. لعلي كنت أتوهم سماعي لمفردات تاريخية كثيرة، أسماء شعوب قديمة وحروب وملوك. بل إنه ردد أسماء سبق لي أن عرفتها في حيوات عشتها مع (امرأة القارورة). بدا بهيئته الكسيرة كتمثال مهمل. وجدت نفسي أقترب منه وأجلس جنبه. كان العرق ينفذ منه غزيراً حاراً ناضحاً بأحاسيس خسارة وضعف وحيرة. امتدت كفي لتمسد شعره وتنساب على كتفه. هل حقيقة انني كنت أشفق عليه وأبتغي مساعدته أم إني كنت أشفق على نفسي وأبتغي إنقاذها؟ مع الاستغراق في خدر انتشر في أوصالنا، كانت أصوات صخب تتضح أكثر فأكثر. آنذاك، أدقّ الرادارات مهما جهدت، لن تستطيع أن تلتقط سوى خليط عجيب من أصوات متناثرة من حشد نوافذ وأبواب وسطوح وجحور: أحاديث وشخرات وآهات وضحكات وصفعات وأغنيات وزجاجات تتكسر وسيارات مارقة وصرير حشرات، كل هذه الأصوات كانت تمتزج وتذوب في صخب أمواج البحيرة

الهادرة لتشكل صوتاً كونياً واحداً. لكن (آدم) قام كأن نداءً خفياً قد جذبه. انحدر نحو اليمين حيث تتوغل شبه جزيرة صغيرة في الماء (مسبح باكي). بلغ شجرتين عملاقتين تنتصبان على الجرف، طالما بدتا من بعيد مثل عاشقين وحيدين يمضيان وقتهما بتأمل المياه. هناك وجدناها. ولم تبد الدهشة عليها ولا على (آدم) كأنهما كانا على موعد. كانت بثوبها المرقط واقفة تحت خيمة الشجرتين، مزروعة في هذا المكان منذ القدم. كانت عيناها ترمقان أفقاً مظلماً، ويرتشف صدرها ريحاً عابقة بروائح كائنات ترسبت في القاع عبر التاريخ. كم من أقوام شربت واغتسلت في مياهها! كم من دماء حروب سالت فيها! وكم من أرواح يائسة انتحرت فيها! وكم من همسات عشق ومداعبات ترطبت بمويجاتها! ستظل مانحة للحياة بمياهها النقية المتألقة المغرية بأكلها وشربها والغوص فيها.

من دون أن تكلمنا أخذتنا بين ذراعيها. في اللحظة التي وضع فيها (آدم) كفه على صدرها وضعت أنا كفي عليه، وعندما انسابت شفتاه على شفتيها كانت شفتاي تحطان أيضاً، وعندما استلقى معها على رمال الشاطىء تحت الشجرتين الشامختين، كنت أنا كذلك أستلقي معها ويلتحم جسدي بجسدها وأغور في عالم عتيق تحييه وتخلقه ارتعاشاتنا الراقصة في احتفال الوجود:

وجدت نفسي غلاماً يعيش في قرية ضائعة بين أهوار الجنوب. كان أبي تاجر حبوب تقياً، يمضي وقته في عبادة أصنام جلبها من (بابل)، عاصمة قومي البعيدة المرتمية على

الفرات. كان جلفاً لا يفكر إلا بتجارته وبالانتقام من العار الذي جلبته له أمي. أتذكر أن عمري كان لا يتجاوز ثلاثة أعوام عندما دخل علينا أبي في ليلة حالكة. كنت مستلقياً في حضنها وهي تهدهدني بحكايات جدي الذي جال الأرض بحثاً عن الخلود. سوف لن أنسى أبداً صورة تلك الابتسامة الحنونة والاندهاشة الساذجة التي ارتسمت على وجه أمي وهي تستقبل خنجر أبي. كان يصرخ بوحشية وجنون: «خائنة.. خائنة...». أمسكني من قدمي وسحبني عنها بعنف. ارتمى عليها، خلع عنها فوطتها السوداء وجرها من قصيبتيها الحنيتين. أتذكر جيداً انها كانت تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة مندهشة، عندما كان خنجره الكلداني يحفر جرحه على عنقها البض الأبيض. ما ظلَّ يحيرني طيلة عمري أنها عندما كانت تموت والدماء تفور منها، لم تكن غاضبة ولا محتجة، إنما نظرت إلي بهيئة حزينة عاتبة، كأنها تقول: انظر الى أبيك.. يكافح ويجهد نفسه لحد أنه يضحي بي من أجلك.. كل هذا من أجلك يا بُني..

أمضيت الأعوام بعد مقتل أمي، وأنا في خضوع مطلق لإرادة أبي. لم أفقه أي شيء عن قصة خيانتها. لم أسمع أي تعليق على الموضوع مرة أخرى أبداً. عشت مع زوجته الجديدة. كانت أسيرة مصرية، اشتراها من (آشور) مدينة أخوالي. كان أبي مستعداً لعمل المستحيل ليتخلص من ذكرى أمي. كان يرغب في أن يمسح عن الوجود أي أثر يذكره بها. لكنني كنت ذلك الأثر الوحيد الذي لم يساعده ضميره على أن يتخلص منه. كنت رمز خيبته ونقمته، وصار بدني أرضاً خربة يحرق فيها أقذار عمره. رغم عطف زوجته عليّ ومحاولتها أن تعاملني مثل أخوتي الذين أنجبتهم، إلاّ انها ما كانت تستطيع

حمايتي دوماً من عنف لسانه وغلاظة كفيه. عند أية بادرة خطأ كان يرجمني بجميع شتائم قومي ويضربني بعصاه المنقعة بالملح، ثم يأخذني دفعاً ليسقطني في النهر وهو يدعو عليّ الانقبار في عوالم سفلى.

رفض أن أتعلم القراءة والكتابة. كانت العادة أن يقوم أحد الكهان بتبني الطفل لتعليمه القراءة والكتابة والدين، لكن أبي كان يبتغي أن يحولني إلى حيوان لا يفقه من الدنيا إلا أوامره. جعلني راعياً لأبقاره، أمضي النهار معها عند أطراف الأهوار، أعلفها وأحميها من هجمات خنازير وحشية وذئاب تزحف من الصحراء المجاورة. كنت أزور سراً أحد الكهان ليعلمني رموز لغتنا وثقافة أسلافنا. كنت أصنع ألواحاً من طين أحمر لأخط عليها حكايات هدهدة أمي، وأزينها برسوم عوالم بعيدة زارها جدي بحثاً عن شباب وخلود.

عندما يهدُّني الجزع، كنت أخرج سراً تمثال إلهتنا الحنون (عشتار)، أسندها إلى سيقان قصب البردى، وأسيح دموع الخلاص. يختلط دعائي بخوار أبقار وأصوات طيور وحشرات وهفيف ريح، فتستريح روحي إذ أشعر بالكون يشاركني آلامي ورجائي.

ذات ليلة كنت على حالي وحيداً أصلي لآلهتي تحت ضياء قمر متسلل عبر سعفات نُخيلات متفرقة في مقبرة القرية. تجمدت عروقي وارتعشت خوفاً وأنا أتنصت لأصوات غريبة تصدر من طرف المقبرة. أصوات مبهمة كأنها توحي بديمومة موت وانبثاق حياة. بألم وشهوة، شرعت أقترب من مصدر الصوت تابعة هاجس فرح كان يحدثني عن قدوم (عشتار) بعد

أن استجابت لصلواتي وأشفقت عليّ من عذاباتي، لكني عندما اقتربت لم أجد ما تمنيت. كان شيئاً آخر لم يخطر ببالي. من بين شواهد القبور رأيت أبي الهرم مستنداً بجلسته إلى قبر جدي. كانت في أحضانه فتاة تفوق في حسنها وبهائها أعظم آلهة الجمال. أبي الأسمر بذراعين محروقتين بشمس وسفالات عمر وأقذار تجارة، كان يحتضن ذلك الملاك. تخيلتها فراشة في أحضان عنكبوت. كانت أصوات حبهما تأتيني ناشزة مبهمة: فحيح شهوتها مفعم بألم وشكوى، وفحيحه يشبه همهمة ذئب يتمطق بلحم فريسته.

طفقت فيضانات نقمة وغيرة تجتاح روحي كأني أشهد عملية اغتصاب حقي وشرفي. راح جسدي يلتصق بشدة بالأرض وأنا متمدد على بطني. أسناني كانت تعض حجارة قبور، وأنفاسي معفرة بتراب، وأصابعي راحت تمزق جلد الأرض وتغور بعيداً فيها. عيناي التصقتا بمشهد فجور يُرتكب أمامي. أحسست كياني استحال إلى كتلة من لهب مركزها أسفل سرَّتي. انتشرت في بدني وفي الأرض قشعريرة غريبة من لذة واندهاش.. ارتعاشة زمن طويل؛ وطاف جسمي على موجات متلاطمة ما عرفتها من قبل!

في لحظات خُمود أصواتهما خَمدتُ أنا فجأة وانسبتُ في غيبوبة من الراحة. بقيت لزمن مستلقياً على ظهري أنظر إلى السماء وأنا في حالة من النشوة جعلتني أستهجن فكرة أن ثمة شيئاً في الحياة يستحق الغضب أو الحزن. كنت حينئذ في صلح مطلق مع الوجود. بدت لي النجوم شموع زفاف القمر على كوكب الزهرة.

عند بزوغ خطوط الشفق بين جذوع النخيل وشواهد القبور، صحوت من شبه إغفاءتي على أصوات قُبلات وهمسات. رأيت أبي يخرج قارورة من متاعه. وضعها أمامه على الأرض ثم احتضن الفتاة وقبّلها بنهم وقلق. وإذ الفتاة، فجأة، قد ذابت وتلاشت، ثم أغلق أبي القارورة وحشرها في متاعه ورحل.

منذ تلك الليلة لم أعرف الراحة. كل لحظة تمر أحسها خسارة محسوبة من عمري. هكذا فجأة اكتشفت أني رجل أملك من القوى المكبوتة ما يؤهلني أن أتخلص، ليس من سطوة أبي وحده، إنما حتى من أعظم الطغاة. لم أكف عن مراقبة أبي في لياليه الماجنة عند قبر جدي. وكلما رأيت (امرأة القارورة) في أحضانه، تفاقمت قوى حقد ودمار في أعماقي.

ذات ليلة قدحت في روحي شرارات الشّر. بينما كانا يتضاجعان على قبر جدّي، هبّت ريح الغرب جالبة معها زمهرير الصحراء وذرّات حمراء مشبعة بشهوة انعتاق وانتقام. انطلق عواء ذئاب جائعة في أعماقي، وامتزج بصفير الريح. في اللحظة التي نهضت فيها من بين القبور والخنجر الكلداني يزأر في يدي، رأيت أبي من دون أن يراني، يترك القارورة على الأرض وينزوي بعيداً عن قبر جدي. كانت لحظات حاسمة ارتعشت فيها أوصالي. بات القتل بالنسبة إليّ، حينئذ، كلذّة مخبولة وطائشة. كدت أتجه إليه وأطعنه في قلبه، لكن رؤيتي للقارورة خلبت لبّي وجعلتني أرتمي عليها وأنهبها. من دون تفكير ركضت.. مع عصف الريح ركضت وركضت حتى وجدت نفسي في حوشنا. الخنجر ما زال يعوي وأنا أريد أن أقتل، ودون تردد وثبت على الأبقار. رحت أطعنها وأبقر بطونها

بوحشية لا مثيل لها، وأقطع مصارينها بأسناني. كنت بحالة فقدان تؤهلني لقتل أي إنسان يواجهني. شيء وحيد كنت أعي أهميته هو القارورة في عبّي. روحي كمنت فيها.. بل تاريخي وحياتي وعواطف حُرمت منها. كنت أتذوق دماء الأبقار الحارة. أتناولها بين كفيَّ، أشربها وأغسل رأسي بها حتى صرت كتلة غبار معجون بدم.

وجدتني أتجه إلى جرف النهر. رميت نفسي في قارب أبي (المشحوف). انحدر بي في المجرى الكبير المتفرع من نهر دجلة. كنت أحتضن القارورة وأقبّلها. كل صرخة كنت أحسها تُهدم جداراً من سجن ماضيَّ، وتفتح أمام مستقبل حرية وانتقام.

عندما هدأت العاصفة وانزاح الظلام والغبار، انبلج فجر ذهبي، غمر بألق شفاف سطح المجرى وبساتين النخيل المحيطة. كانت تأتيني من بعيد أصوات فلاحين ورعاة وحيوانات. ركنت المشحوف بين الأحراش، وهبطت محتضناً القارورة. اختبأت تحت ظلال نخيل وكتل قصب، وفتحتها. لم تسألني عندما خرجت، ولم تتح لي مجال الكلام. حدَّقت إليّ بحزن وعجب كأمٍّ تشفق على حماقات ولدها. أمسكتني من ذراعي، وقادتني إلى الماء. خلعت عني ثوبي الممزق الملطخ، وراحت تغسل عني أقذار انتفاضتي. كنت أشاهد خلال عينيها مياه النهر تنأى بعيداً ملوثة بتاريخ ضعفي وخنوعي.

بقيت بصحبة معشوقتي أتابع بمشحوفي مجرى النهر. لأيام وليالٍ كنت أعتاش على سرقة المزارع والبساتين وبيوت الفلاحين الواقعة على الشاطىء. رغم أن عمري آنذك لم يتجاوز

الاثني عشر عاماً إلا أني صرت رجلاً بالغاً بفضل ما منحتني إياه (امرأة القارورة) من مشاعر فحولة وثقة بالذات. عندما وصلت إلى شواطىء الخليج اشتغلت بحاراً في سفن تمخر عباباً ممتدة حتى محيط الظلمات.

الأعوام وتجارب الزمن وأحقاد الماضي التي ما انفكت تفور كالبركان في روحي، صيرتني قرصاناً همجياً. كنت أجول البحار بحثاً عن سفن التجار لأستولي عليها وأفتك بناسها. لم يكن لدي أيّ صديق في حياتي، غير (امرأة القارورة). البشر كانوا بالنسبة إلي واحداً من اثنين: إما عدو أخشاه وأحاربه، وإما تابع حقير أسحقه لأفرض عليه مشيئتي. كانت (هاجر) مرفئي الوحيد الذي يرسو فيه جسدي وروحي من دون سلاح ولا مشاعر عداء ولا خـوف أو احتقار. كانت هي سلامي الأبدي المختبىء في أعماق قارورتي.

حتى أتى يوم تغيرت فيه حياتي من جديد. امرأة أرضية أتتني كزخة مطر أطفأت نيران حقدي وأنبتت محلها زهور حبٍّ برِّية. ذات يوم، هاجمنا سفينة قرطاجية تائهة قرب شواطىء إفريقيا الشمالية. لم تواجهنا صعوبة بالاستيلاء على السفينة لأن جميع بحارتها وركابها كان الجوع والعطش قد أنهكهم بعد أن أمضوا الأشهر تائهين في البحر الكبير. أعطيت أوامري بجمع الغنائم في جهة والأسرى في جهة أخرى. كنت واقفاً عند شرفة القيادة، أراقب عملية تقسيم الغنائم والتخلص من الأسرى الضعفاء برميهم إلى البحر. كانت هناك كـومتان متجاورتان، واحدة من ذهب وفضة وأحجار كريمة، وأخرى من رجال ونساء منهوكين من جوع وعطش وأقذار. كان صمت البحر

قد فرض هيمنته حتى على قلوب القراصنة الصاخبة بشهوة السلب والقتل. الجميع كانوا ينتظرون بتلهف أوامري. فجأة، وثب أحد البحارة الذي أسكرته الخمرة الكنعانية، وارتمى على فتاة جاثمة في مقدمة الأسرى. أمسكها من شعرها واستل خنجره وهمّ أن يذبحها وهو يطلق زئيراً منتشياً بالنصر. عندما ارتفع وجه الفتاة إلى السماء، كنت مطلاً عليها من فوق. للحظات التقت عيناها بعيني. كانتا صافيتين مفعمتين بزرقة سماء وسكون بحر. ما رأيت في عمري وجهاً بريئاًمطمئناًكهذا. بسطت أمامي سيماء طفولية كتلميذة تبحث عن رضى في عيني أستاذها في أثناء درس الموت. خلبتني طمأنينة الأطفال هذه. مثل عاصفة، اجتاحت مخيلتي صور الماضي: ابتسامة أمي وخنجر أبي وأعوام تشردي وملامح ضحاياي. أطلقت عوائي وسحبت مطواتي وقذفتها بلهفة مشرف على السقوط. في اللحظة التي مسّ فيها حدّ الخنجر عنق الفتاة، اخترق نصل مطواتي إذن القرصان. ارتعد كجرذ مَصلي وسقط أرضاً. أغمضت الفتاة عينيها، وانتشر على وجهها رذاذ دم القرصان.

منذ ذلك اليوم، تغيرت حياتي من جديد كانت الفتاة ابنة أحد أمراء قرطاجة. كانت عائدة من زيارة أعمامها في صور ويافا ودمشق. هجمات السفن الرومانية وتهديداتها جعلت سفينتهم تضيع الطريق وتهيم في البحر. أسيرتي هذه غلبتني. اسمها (عازار) وهي حقاً عذراء روحاً وجسداً. نفخت عليّ بأنسام اطمئنانها، وبرّدت فيّ رمضاء قلقي، وجعلتني أهجر بلا رجعة حياتي السابقة. صارت لي حرمة نور تشقّ غيوم العنف المتراكمة في سماء حياتي.تشبثت بها كدخيل في حضرة قديس مُخلص. شددتُ الرحال معها تاركاً ورائي قراصنتي

وتاريخي الأسود. لم أصطحب معي غير قاروتي، حيث تستقر (هاجر) لتظلَّ في عيني رمز تاريخ أشتهيه وأحن إليه وأمارس عليه سلطتي المطلقة.

من أجل أن أنال رضى عائلتها وأبيها الأمير، تطوعت في جيش قرطاجة. حصلت على حقوق المواطنة وأصبحت ضابطاً في أسطول فرقة بحرية مكلفة بحماية الشواطىء من هجمات أسطول القائد الروماني (شيبيو). آنذاك كان الزعيم القرطاجي (هانيبعل) منذ خمسة عشر عاماً وهو يشن حرباً طاحنة مستمرة لاجتياح روما وكسر شوكة امبراطورية طامحة إلى التوسع. علاقتي بـ (امرأة القارورة) ما طرأ عليها أي تغيير، ظلت عشيقتي السرية ورفيقتي في خفايا شهواتي وأنيستي في سفرياتي وأيام ابتعادي عن حبيبتي (عازار). قرطاجة راقت لي. كنت أعيش فيها بسلام وبحبوحة مع أميرتي. نمضي ساعات العصر في حديقة قصر أبيها المطلة على سواحل البحر الكبير. زرقة الماء والسماء وخضرة بساتين الزيتون المنعكسة في عينيها ظلَّت تزيد من الطمأنينة في روحي، وتعوضني عن أعوام قحط ودم وسط أهوار طفولتي وبحار شبابي.

الزمن ما شاء ترك ناري تخمد تماماً. هبت رياح الحرب، وتأججت من جديد مع المخاطر التي أخذت تحيق بمدينة قرطاجة. لم يدم زمن تنعمي بالحُبّ والغنى والاستقرار. ودعت أميرتي والتحقت بحملة عسكرية بقيادة (آزروبعل) الشقيق الأصغر لـ (هانيبعل). رحلنا معه إلى أرض الرومان لنجدة شقيقه الذي ضعفت جيوشه بعد خمسة عشر عاماً من المتاهات الحربية في أرض الأعداء، لكن حملتناانتهت بكارثة. نجحنافي

أرض الإسبان واجتزنا جبال (البرانس) ونهر (الرون) ثم جبال (الألب) حتى وصلنا إلى سهل شمال إيطاليا. لم يبق إلا القليل لكي نحقق هدفنا بالالتحاق بجيش قائدنا الأكبر، لكن (آزروبعل) لم يتحل بحنكة أخيه وبعد نظره. أضعنا أياماً ورجالاً في افتعال حروب هنا وهناك، واكتساح قرى عزلاء وتطويق مدن مسالمة من دون أية نتيجة معقولة. تأخرنا عن غايتنا ومنحنا الوقت لأعدائنا ليجمعوا قواتهم. عند نهر (ميتور)، ذات صباح باكر، استيقظنا على أصوات أبواق حشود الرومان بقيادة (نيرون). وقعنا في كماشة جيشين كاسرين. عندما حلَّ المساء كان جيشنا قد أبيد، وقائدنا قد قُطع رأسه ليرسله (نيرون) إنذاراً إلى (هانيبعل).

استطعت أن أنجو بحياتي بعد أن نهشت قدمي اليسرى طعنة رمح روماني. اختبأت في غابات منتشرة على ضفاف النهر. التجأت إلى قبيلة من الرعاة السلتيين الهاربين إلى الشمال بعيداً عن سوح الحروب. شاء حسن طالعي أن تكون هذه القبيلة من الناقمين على الرومان. لقد آووني وساعدوني على قطع قدمي الجريحة بفأس محمية.

حتى في أشد أوقات آلامي وإنهاكي كنت أكافح غيبوبتي مفكراً بقارورتي التي أخفيتها في طرف الغابة. كانت أحلامي زاخرة بصورة ماض دام وبحث أبدي عن انعتاق وسلام. تارة يأتيني طيف أميرتي (عازار) متوهجاً بخضرة زيتون وزرقة بحر، وتارة يأتيني طيف(هاجر) ليحميني من ريح وأمواج وحشود سُحب. ما أن استطعت أن أعرج على قدمي حتى تسللت إلى الأحراش بحثاً عن قارورتي. كانت هناك شمس

مائلة إلى الغروب وخطوط أشعة نحاسية تلوّن أغصان وتسكب بريقاً شهوانياً على الأوراق. في كل مكان كانت هناك بقايا جثة جندي قرطاجي. امتزجت عفونة موت بروائح زهور أقحوان وأشجار أرز وزيزفون. لأول مرة في حياتي أحسُّ بمثل هذا الرعب والمقت أمام مشهد الموت. كنت أرتعد وألهث كذئب جريح يفتش عن منفذ في طوق حصار. رحت أقفز على أطرافي الأربعة، أشق أحراشاً بأصابعي وأشمّ حشائش بحثاً عن قارورتي. خُيل إليّ أن خطوط الأشعة قد استحالت إلى رماح نحاسية محمية لتخترق بدني من كل مكان. وجدت قارورتي منزوية بين حشائش مدماة. أخرجت معشوقتي وارتميت على صدرها لأذرف دموع هزيمتي وحيرتي. كنت بحاجة همجية إلى أن أدخل فيها.. أحتمي بجدار صدرها من الرماح. مارسنا الحب بين بقايا جثث الرفاق. عبر كل ارتعاشة من جسدينا كنت أشعر بحمم مدمرة تنقذف لتحرق مغارات روحي المسكونة بوحوش ما قبل التاريخ.

بقيت لاجئاً عند قبيلة الرعاة خلال أعوام. كنت أتنقل معهم بين غابات وأودية وأنهار وجبال. كنا نبحث عن أرض سلام تأوينا بعيداً عن حروب الرومان وغزوات القبائل الجائعة. توجهنا إلى الشمال وعبرنا جبال الألب. رحنا نمضي على ضفاف نهر (الرون)، نتبع مياهه الهابطة جنوبياً نحو البحر الكبير. رغم الثلوج وأوجاع الترحال وهجمات الخصوم، إلا أن قبيلتي لم تتوقف عن مسيرتها، مدفوعة بعزم جبار لا ينضب: الرغبة في الخلاص. أما أنا فـ (هاجر) كانت خلاصي وملجئي الخفي كلما ورّم الحنين قلبي. في منامي كنت أعيش كوابيس

أوطاني القديمة: الأهوار موطن أسلافي وعذابات طفولتي. البحر موطن عنفواني وثورة فتوتي وشبابي. قرطاجة موطن حُبي وسلام روحي. تعلمت لغة قبيلتي السلتية وعاداتها، ورافقت رجالها في مصاعبهم ونزواتهم، وعاشرت نساءها خفية وعلانية. ذات يوم كاد ساحر القبيلة أن يمحقني بغضبه، لولا أني أذعنت ووافقت على أن أتزوج ابنته بعد أن حملت مني. كانت شابة شهباء، حمراء الشعر، مُسترجلة. يسمونها (كارل) بدلاً من (كارلا). شكلها العملاقي وحركاتها الرجولية توحي بجفاف وخشونة غريبين عن طباع الأنثى. مع الزمن اكتشفت حقيقتها. كانت تتعمد هذا المظهر لتلبي رغبة أبيها الذي لم يحقق حلمه بإنجاب ولد. علاقتنا بدأت عندما شاركت أباها في قطع قدمي وأشرفت على مداواة جراحي. انبثقت منها فجأة ينابيع مشاعر رقراقة وملذات أنثوية مختفية وراء مظهرها الذكوري. عندما حملت مني، رضيت أن ترتدي ثياب النساء، وتركت شعرها يطول. وكانت تجيبني عندما أناديها (كارلا). حتى النمش الأحمر الذي يغطي وجهها وأنحاء جسدها، صار يضفي حرارة على لحظات لذتنا. منحتني من الحُب ما جعلني أتناسى الماضي وأندمج يوماً بعد يوم في حياة القبيلة. أنا بدوري، لم أقصّر عن منحها أعظم الحُب، لكن مشاعر قلبي كانت بين حين وآخر تفيض وتغرق غيرها من النساء. اكتشفت أن قلبي كان مثل مدينة، لا يمكن لامرأة أن تكفيها، لعلها تستطيع احتلال أكبر القصور والاستيلاء على معظم الثروات، إلا أنها يقيناً ستنسى بضعة مساكن شاغرة.

تعلمت من ساحر قبيلتي بساطة الحياة والوفاء وعبادة الطبيعة والتمسك بالأمل حتى لو كان وهمياً. حاولت أن أنقل

إليه معارفي التي اكتسبتها من ماضيّ. حدثته عن آلهة (بابل) وأسرار عبادة النجوم ومكتشفات الفلك وأبراج البشر. علمته أبجدية الفينيقيين وثقافتهم. حدثتهم عن علوم المصريين وفلسفة الاغريق وقوانين الرومان. والأهم من كل هذا، إني، من خلال (كارلا) علمت نساءهم استخدام مساحيق التجميل اليمانية وصنعها من الصخور والأشجار والزهور. يوم ولدت (كارلا) لي ابناً، عمّ الفرح الجميع، وكان مناسبة لأن تتبرج النسوة ببراعة وسخرية.

ارتفعت مكانتي بين أفراد القبيلة، لأني أولاً منحتهم ذكراً سيدعم قواهم، وثانياً لأن ابني هو حفيد ساحر القبيلة، وسيرث حتماً موهبة جده ومعارفه وقدراته السحرية. امتناناً منهم وافقوا على أن أختار بحريتي اسم ابني. عندما أسميته (آدم)، استغربوا وضحكوا، لكنهم أخيراً هزوا رؤوسهم اقتناعاً.

كلما كنت أمضي باندماجي في حياة القبيلة، تخمد ذكرى ماضي.

انتهى بنا المطاف أن وجدنا أرضاً خالية آمنة عند طرف الضفة الغربية لبحيرة (ليمان). حططنا الرحال بعيداً عن قرية يقال لها (ففه). كان ابني ينمو في أحضان جده، وهو يبخره ويقرأ عليه تعاويذه ويبصق في فمه لينقل إليه معارفه. كنت سعيداً إلى درجة لا توصف وأنا أرى ملامحه تتضح وتأخذ هيئة حنطية تميزه عن باقي أبناء القبيلة. فشلت في أن أقنعهم بالموافقة على ختانه. رغم جميع أيماني الغليظة لم يصدقوا بوجود قوم عقّال على الأرض يمكن أن يوافقوا على قص لحمة من ولدهم.

الزمن، من جديد، لم يمهلني لأظل أباً لهذا الطفل وزوجاً لهذه المرأة وابناً لهذه القبيلة. كنت ذات ليلة في خلوتي مع (هاجر) بين صخور عند سفح منحدر حتى ضفاف البحيرة. في هذه الليلة جلبت معي طفلي لتمضي معه (هاجر) بعض الوقت لرغبتها في ذلك. كنت أتمعن في خطوط الشفق المتسلل وراء الجبل. فكرت بوعيد الساحر وتحذيره من غضب الجبل. منذ أسبوع وهو ينذر القبيلة من كارثة محدقة. لم نوف بنذرنا المعتاد للجبل. شحّ الموسم ومرض الحيوانات منعانا من التضحية بقرباننا السنوي.

فجأة ارتج الكون بضجيج وحشي جبار، واهتزت الأرض، حتى خلت أن القيامة قد قامت. كانت كتل صخور متساقطة من أعلى الجبل تجتاح الوادي وتحيله إلى كتلة هائلة من غبار ممزوج بصرخات ألم واحتضار. لولا حماية الصخرة العملاقة التي كنا مستلقين تحتها، مع (هاجر) وطفلي، لانسحقنا جميعنا قبل الآخرين. بعد دقائق معدودة هدأ الضجيج وانقطع تساقط الصخور. عندما نهضت ونظرت إلى الشاطىء الأخضر الذي تركت فيه قبيلتي منذ ساعة، لم أشاهد غير الصخور. لقد اختفى رجال قبيلتي ونساؤهم وأطفالهم في غفوة أبدية بين حيوانات وأعشاب وشجيرات زيزفون. صخور.. لا شيء غير الصخور. مئات الأجساد والأحلام والذكريات قُبرت في دقائق تحت الصخور. ها هو جزء آخر من ماضي يتبدد تحت أحجار جبل أحمق، غضب لأنه لم ينل قربانه.

كيف أصف لكم مقدار الجزع الذي أصابني والخيبة التي هدّت قواي.. استفاق ذئبي من غفوته وشرع في عواء حزين،

جعل الذئاب تحوم حول الصخور بحثاً عن بقايا جثة. ارتميت على الصخور من أجل التهامها وإخراج موتاي. لولا تعلقي بولدي ووجود (هاجر) معي للبُّيت نداء حاجة ماسة إلى نسيان ازلي. بعد سبعة أيام أمضيتها في مأتم صامت أمام قبر قبيلتي وزوجتي، كنت جالساً على الضفاف، رجلي المبتورة تستبرد أوجاعها في الماء. كنت وحيداً أنظر إلى ولدي الذي يغفو بجانبي بعد أن أرضعته (هاجر) وعادت إلى قارورتها. شمس حزيران كانت تستفيق متثائبة من وراء جبال الألب الشامخة على الضفة المقابلة، تأخذ حمامها الصباحي في المياه الذهبية الزرقاء. ريح رقيقة هبت من الجنوب، بثت رعشة خفيفة على سطح الماء، وجلبت معها أسراباً من طيور سنونو محملة برمال صحارى وعفونة اهوار وبحار. خلال حياتي كلها لم أشعر مرة هكذا أني وحيد. لم يبق لي غير حلم بعودة مستحيلة إلى الأوطان. استعرَّت فيّ نار الحنين إلى (عازار) وقرطاجة.. إلى الخليج وسفينتي وحياة القرصان.. إلى قريتي والأهوار وإخوتي الصغار. نظرت إلى الطفل وفكرت بالمصير الذي ينتظره في صحبتي. إني غريب في أرض حتى أصحابها غرباء عنها. جرمان وهلفت وغاليون، قبائل جائعة تتقاتل من أجل قطعة ارض تستقر عليها، رومان وأتروسك وغاليون وقرطاجيون، جيوش مدججة بحضارة تتحارب من أجل سيطرة ونفوذ. لم أعد أرى من الطبيعة سوى غضبها وشحها وثلوجها وطواعينها والذئاب التي هيجتها روائح الموت.

قمت متوكئاً على قدمي الخشبية محتضناً قارورتي وولدي مع أسماله، وتوجهت إلى قارب صغير. استلقيت ووجهي قبالة

سماء تلمع بزرقة صافية بينما قاربنا ينساب بنا مع ريح الجنوب ليقودنا أينما يشاء.

عندما فتحت عينيّ، كنت وحيداً على الشاطيء، وقد اختفى (آدم) وقارورته. تركاني وحيداً في صباح أحد ربيعي وقد غادرت الغيوم السماء وعادت طيور البجع تتهادى جماعات جماعات ولم تزل الشجرتان مطلتين عليّ كجاريتين وفيتين تنتظران رغباتي. وعندما قمت أحسست بآلام غير طبيعية في قدمي اليسرى جعلتني أعرج على الرصيف.

فصل سادس

من دون مقدمات كبيرة أفتح لكم الفصل الذي أعلن فيه (آدم) عن رغبته في إطلاق سراح (هاجر). إني تقريباً قد تكهنت بهذا. إنه ما تغير، رغم عزلة الأعوام السبعة، فإن عالم حوريته أعاده من جديد إلى نبي يسعى إلى تغيير التاريخ وتحسين سنّة الوجود. راح ينظر إلى (امرأة القارورة) كسجينة تعيش عبودية خلودها، لا تعرف من الوجود غير ملذات عشاقها وعذاباتهم، تولد بمولدهم وتموت بموتهم، محرومة من تذوق الحياة بأوجاعها وأفراحها. جعلها تنكب على قراءة الكتب وتتابع أخبار العالم وأحداثه. ومع الأيام راحت حكاياتها تمتلىء أكثر وأكثر بأسئلة ورغبات.

اتفقنا على طرق المستحيل لتخليصها من سحر القارورة. تمعنا في إمكانية كشف أمرها للناس وطلب العون من المعنيين، غير أننا تخلينا عن الفكرة فوراً، إذ خشينا المخاطر: سينكب مختصون وجراحون وسحرة وكيميائيـون على إجراء تجاربهم وتحاليلهم على بدنها. ستتكالب صحف ودور دعاية وأزياء وسينما وأجهزة إعلام، جموع مغامرين ومكتشفين، ليصنعوا من (هاجر) رمزاً خالداً لأحلام خائبة. فكرنا في احتمال أن

تتحول إلى مشكلة سياسية بين الدول المعنية بحقوق امتلاكها، حينها سنفقد حتى صلتنا بها.

قلنا لا. رحنا نجرب استشارة أصحاب الأمر من سحرة وروحانيين ومتضلعين بالتنجيم وعلوم ما وراء الطبيعة من دون أن نكشف بالضبط تفاصيل معضلتنا، اتصلنا بمتفقهين من أتباع الطوائف الهندية ـ الآسيوية في (جنيف وباريس وبرلين ولندن) : بوذيون وهندوس وباغوانيون وغيرهم من الطوائف القديمة والجديدة. راح (آدم) يمضي وقته بمراسلة متصوفين إسلاميين، ويتصفح كتباً عربية قديمة تتحدث عن التصوف والسحر والطبّ. طالعنا كل ما وجدناه من كتب متعلقة بحضارات الشرق الأوسط القديمة وأديان الشعوب السامية وقبائل الصحراء. اتصلنا بنساك، وزرنا أديرة عديدة بين جبال الألب وجيرا.

لا شيء.. دائماً لا شيء. نتيجة وحيدة خرجنا بها: العودة إلى الصحراء. هناك نشأت المعضلة، وهناك يكمن حلها. حكماء الصحراء وحدهم يملكون سر القارورة. تساءلنا، أي جزء يقصدون من هذه الصحارى الممتدة من اليمن حتى الشام ثم سيناء وصولاً إلى الصحراء الكبرى المشرفة على المحيط الأطلسي؟ أمضينا ليالي بطولها، نخرج (هاجر) من قارورتها لتشاركنا حيرتنا. لقد سخرنا منها في البدء عندما أشارت علينا بالاتصال بالشيخ الذي وضعها في القارورة. لكنها أقنعتنا وهي تقول إنها متيقنة من خلوده: لا يمنح الخلود إلّا من كان خالداً. لكن أين يمكننا العثور على هذا الشيخ؟ (هاجر) كانت تجهل اسم الصحراء التي التقته فيها. ظروف تنقلها وترحالها، ما

أتاحت لها تمييز وحفظ أسماء الصحارى والبوادي التي اجتازتها مع ملكها (تموزي) خلال عامين من البحث. كان يمكنها أن تصف لنا المكان وتتذكره بتفاصيله، ولكن دون معرفة الأسماء. تقول إن الجبل كان أحمر، صخوره ورماله تشع بألوان نحاس.

و (آدم) ما كفَّ عن مقارعة الزمن من أجل تخليص حوريته. لم أفهم لماذا كلما رأى جنينه يكبر في بطن زوجته، اشتد هوسه بتخليص حوريته. كان مقتنعاً بقراره كأنما (هاجر) قد أمضت آلاف أعوامها وهي تنتظر يوم يأتي هو ليخلصها من خلودها.. كأنه يبتغي إنقاذها من الموت. لعله في حقيقته كان يرغب في ان يجعلها فانية مثله. إنه مثل جميع المنقذين، دون وعي منهم يخفون بذرات أنانية في أعماق إنسانية صادقة وطاهرة.

في الليالي التي أمضيتها مع (هاجر)، كنت أحاول إقناعها برفض رغبة (آدم)، لكن حماسته قد نفذت بعيداً في أغوارها، وصار حلمها أن تعيش يوماً كامرأة عصرية صوَّرتها لها كتب وأفلام وصحف وأحاديث (آدم). أمن أجل إرضاء عشيقها قبلت أن تضحي بخمسة آلاف عام من ذكريات العشق، وملذات آلاف أعوام قادمة؟ علَّمها (آدم) أن تغيظني بقولها إني ليس حباً بها أريد بقاءها خالدة في قارورتها، إنما لكي أمارس سلطتي عليها وأتمتع بملذاتها.

جمعنا لـ (هاجر) كل ما استطعنا تحصيله من كتب مصورة متعلقة بالصحارى العربية وبوادي شرق البحر المتوسط. كنا نمضي معها الساعات لتطلع على الصور وتتذكر الأماكن التي

مرت بها. أولاً، تركزت الظنون على منطقة البتراء قرب خليج العقبة لأن الصخور الحمراء منتشرة فيها. لكن (هاجر) عرفت المنطقة وتذكرت أنهم اجتازوها بعد أن التقوا بأحد نساكها. بعد ليال من الجدل والاستقصاء توصلنا إلى نتيجة أكيدة هي أن المكان المطلوب هو صحراء سيناء، صخورها وجبالها حمراء، تربط بين آسيا وإفريقيا، وملتقى جميع قبائل وقوافل شعوب الصحراء. وهي، منذ القدم، الملجأ الطبيعي لنساك وزهاد أديان مصر والهلال الخصيب وجزيرة العرب.

لم يبق لنا اختيار آخر سوى السفر إلى سيناء. خلال أسابيع بذلنا الجهود لتخطي مصاعب مالية وإدارية. تدبرنا التأشيرة والمال، وهيأنا خرائط ودراسات مختصة بسيناء.

في مدينة الإسماعيلية على قناة السويس، التقينا دليلنا (موسى)، أصله يعود إلى قبائل عربية حافظت على مسيحية مفعمة بروحانية البادية. كان شاباً أسمر البشرة، ملامحه منحوتة، وفكه بارز، وحنكه عريض، وعيناه حادتان صغيرتان كعيني صقر. في الصباح كان (موسى) قد هيأ لنا سيارة (بيك آب) ومتاع سفر مع أدوات مختلفة وخنجرين ومسدس. انطلق بنا متوغلاً في شمس زاحفة من أعماق الصحراء. قُبيل رحيلنا، بعيداً عن أنظار (موسى)، أخرجنا (امرأة القارورة) وهي التي بعد أن جالت نظرها في السماء أشارت إلى غيمة راحلة نحو جنوب شرق الصحراء، قالت إن تبعناها سنصل إلى شيخ الخلود.

سبعة أيام ونحن نجول تحت ظلال غيمة تقودنا بين ذئاب وعواصف رملية كانت تخرب خيمتنا وتطفيء نيراننا وتكسونا

بغبار أحمر. اجتزنا مدناً صغيرة وقوافل سائحة منذ القدم واديرة قبطية ومراكز عسكرية وتلالاً وجبالاً وسواحل ممتدة إلى سواحل وسواحل لا تنتهي. عند انتشار أنوار الشفق كان ينتابنا إحساس مزدوج بالشموخ والضآلة أمام مشهد اتحاد الأرض والسماء، ونحن كأننا أجنة ننبثق منهما. كم من أنبياء وحكماء صنع هذا الالتقاء؟ هذا السكون الذي يوحي بالعدم والبدائية، يستحيل مع صفير الريح إلى أناشيد تتغنى بالأزلية.

أتذكر في تلك الليلة: خيمنا في المكان الذي جلبتنا إليه غيمتنا. كنا قريبين من (جبل موسى) وجبل (القديسة كاترين) حيث يستقر دير قبطي يقطنه رهبان وإله بدوي. كان التعب قد أنهكنا، وتفاقمت حساسيات فيما بيننا. كنا قد اتبعنا نظام أنْ ينام اثنان ويبقى الثالث مع المسدس مستيقظاً للحراسة، ويتم التناوب كل ساعتين. كانت نوبتي عند الساعة الحادية عشرة. رفيقاي كانا يغفوان بعد أن أمضينا أمسية أسمعنا خلالها (موسى) حكاياته عن تواريخ وأماكن تتداخل بحرية لا تعرف حدوداً. عن (الأعور الدجال) الشيطان الذي يذبح المؤمنين ولا يقتله إلّا عيسى. وعن قوم (ياجوج وماجوج) الذين يهدمون سور الدنيا ويجتاحون الأرض فسقاً. أشار إلى الجبل الأحمر الذي نصبنا خيمتنا تحت ظلاله وقال إنه (جبل موسى)، من قمته كان موسى يكلم الله. ومن أراد أن يستجيب الله لدعائه ليصعد إلى القمة يدعو ويستغفر. عندما خطف في السماء شهاب قدح وانطفأ. دليلنا موسى استعاذ بالله ولعن الشيطان وقال إن الشهب هي نيران يرميها الملائكة على (إبليس) عند اقترابه من أبواب السماء.

كانت ساعتي تشير إلى منتصف الليل، وأنا جالس في السيارة. صاحباي كانا يهجعان خارج الخيمة على مبعدة خطوات. ثمة نسيم رقراق كان يبث الخدر ويجعلني أنساب منخلباً في رؤى سماء زاخرة بنجوم متطايرة متوهجهة كأسهم نارية في احتفال من الصمت. مشاهد متنوعة من ذكريات تمر في الخيال كشريط سينمائي من مقاطع لُصقت بعبث.

من وراء الجبل، ظهر القمر قريباً كأنه يستريح على القمة. على ضوئه الذي غمر الساحة، رأيت نقطتين تلمعان من مسافة قريبة. فوق صخرة مدببة كانت هناك أفعى مرقطة طويلة ترفع رأسها وتثبت نحوي عينين براقتين. رغم جفلتي وتقززي، فإني انسجمت مع إحساس مبهم بالانجذاب. دون مشيئتي، امتدت يداي إلى القارورة المخبأة في صندوق السيارة، ربطتها على كتفي وأصابعي متوترة على زناد المسدس. وجدت نفسي أتبع أفعى تزحف متسلقة سلالم صخرية. بين وقت وآخر كانت تتوقف وتلتفت نحوي بعينين قمريتين. سخرت من نفسي لأني أمام مشهد الأفعى انتابني شعور لا يعبر عن تقزز أو خوف، بل رثاء واشتهاء وتهكم، إذ كان جسمها متماوجاً يتلوى على صخور مبلولة بضوء شاحب فتبدو تارة كطفل يزحف وتارة كفاتنة تتمايل.

لم أدرك كم مضى من الوقت، عندما رأيتها تقف عند مدخل مغارة يتسرب منها وميض شموع. حدّقت فيَّ وتسللت إلى الداخل كلما اقتربت كانت رائحة بخور تعبق. هواجس كثيرة تصارعت في رأسي: قاعدة عسكرية، مخبأ عصابة، مسكن؟ استنشقت عميقاً الهواء ثم زفرت كأني بذلك أستنشق شجاعة

وأزفر خوفاً. أحكمت حولي رباط قارورتي وتشبثت بالمسدس، ثم تقدمت.

وجدت نفسي فجأة أقف عند فتحة واسعة. أمامي مباشرة شيخ جالس كما لو كان في انتظاري، فتح عينيه ونظر إليّ بإلفة طبيعية كأنه اعتاد رؤيتي. تسمرت مبهوراً بالتطابق العجيب بين المكان وذاكرتي عنه. سبق لي أن تخيلته من خلال وصف (هاجر)، لكنه كان من شدة تماثله كأني قد عرفته ورأيته من قبل. على مسافة أمتار، في وسط الباحة، كان الشيخ مفترشاً حصيرة من سعف نخيل، متكئاً على ساق سنديانة هرمة، أغصانها مورقة تمتد في الأنحاء المعتمة من المغارة. كان يرتدي ثوباً أبيض فضفاضاً ونظيفاً، يضع على رأس نصف أصلع طاقية بيضاء مزخرفة بثقوب. بدا وجهه أسمر بلحية وشعر فضي، كوجه إمام أو نبي مرسوم على لوحة شعبية. كان متربعاً في جلسته وشفتاه تتحركان بتناغم مع تساقط حبات مسبحة سوداء تبرق بخضرة.

قلت: السلام عليكم.. بينما يدي تجهد كي تخفي مسدسي تحت قميصي.

ما سمعت منه صوتاً إنما سقطت حبة من مسبحتــه، وارتسمت خطوط على محياه تشبه ابتسامة. عندما جلست قباله ميزت في عينيه لوناً عسلياً صافياً يوحي بطفولة وخدر كتطواف على مياه.

لحظتها أتاني يقين عجيب بأنه هناك لغة وحيدة يمكنها أن تحاورني مع هذا الشيخ، لغة وَجد وانعتاق من المحسوسات. ملامحه ونظراته وهيئته كانت تنطق بلغة كونية خاطبت فيَّ

مجاهيل كينونتي. بلا صوت ولا مفردات كان حوارنا يدخل القلب مفعماً بعتاب وحنان وتعنيف وسؤال.

عندما وضعت القارورة أمامه، استمرت حبات مسبحته متساقطة متناغمة مع أصوات مبهمة تصدر من بين شفتيه كتراتيل بدائية. جعل مسبحته حول القارورة، وحملها بين كفيه، ونهض ماشياً بخطوات ثقيلة. توغل في أعماق المغارة حتى غاب.

زحفت إلى الحصيرة، وجلست مكانه، واتكأت على جذع السنديانة. ليس هناك من أثر لحياة غير أوراق وكتب وصفائح فخارية مصفوفة ومتناثرة على أرض وعلى رفوف صخرية: كتابات مسمارية على صفائح فخار، كتابات قبطية على أوراق بردي، كتابات آرامية وسريانية وعربية واغريقية ولاتينية على قطع جلد وقماش، كُتب صفراء، أناجيل وتوارة وتلمود وقرآن، كُتب حكمة وتصوف ودواوين شعر.

بين حين وآخر، كانت ورقة متيبسة تتساقط من السنديانة. تهب نسمة ريح من الخارج وتدحرج ورقة إلى أعماق المغارة. نهضت لأتمعن في أوراق الشجرة. كل ورقة كانت تحمل هيئة إنسان، جميع الأشكال والأعمار والأجناس؛ حالما تصفرّ ورقة وتتيبس، كان الإنسان فيها يحتضر وتنمحي صورته. رحت أدور مبهوراً، أبحث بين الأغصان عن أوراق قد تحمل هيئة أناس أعرفهم. على غصن يمتد حتى مدخل المغارة، رأيت ورقتين وحيدتين تتدليان تحت ضوء القمر. إحداهما خضراء خضراء مغمورة بندى، وكانت تحمل هيئة (هاجر)، الأخرى نصف مصفرة وأصاب جفاف أطرافها، وكانت تحمل هيئة (آدم).

لحظتها كان الشيخ ينبثق من أعماق العتمة ورداؤه الأبيض تهفهف به نسمات خفيفة. كان يحمل قارورتي بيد وقنينة زجاجية أصغر حجماً بيد أخرى.

جلس في مكانه واضعاً القارورة والقنينة أمامه على الأرض. اتخذ هيئته المعتادة، وراح يطقطق بحبات مسبحته بتناغم مع حركة شفتيه. قارورتي لم يتغير منها أي شيء، والقنينة ممتلئة بسائل صاف شفاف. عندما صافحت كفي كفه بهت وحدجني بنظرات جارفة. ارتسمت على محياه تلك الخطوط الشبيهة بابتسامة، وأطبق بكفه الأخرى لتتصافح أكفنا الأربع. حينها سرت في أوصالي قشعريرة من خدر لذيذ، فانكمشت على نفسي، وأسبلت جفنيّ، وانزلقت في غيبوبة. كما لو أني كنت أتكور وأتكور، وتصاغر حجمي، حتى خُيل إليّ أني صرت جزئية تطوف في نور جليل يغمر الوجود. كنت خفيفاً بلا وزن، متحرراً كلياً من قيود المكان والزمان. خلال زمن أجهل كم طال، حين تحاضنت أكفنا، قامت روحي بالطوفان عبر آلاف وآلاف من الأعوام الأميال:

إني الزمن السرمدي. إني الكينونة المطلقة. إني خلود الخلود...

اللذّة.. هي هاجسي في خلق ذاتي وصيرورتي وجوداً كلّياً. اللذّة حركة، تناغم اندماج وانفصام، اقتراب وتناء.. إنها وجود وحياة وانسجام اضداد. بالتوافق الأمثل بين الولوج والخروج والانغلاق والانفتاح، تنبثق لذة قصوى وارتعاشة نشوى، فيتحقق الحُب الأسمى والوجود الأكمل.

إني الاندماج الكلي. إني درَّة أخلقها، وبها تتكامل خلقتي. متداخل مع أجزائي وذاتي في رحم درَّة: نوري بظلامي، صلابتي بليونتي، وضوحي بغموضي. إني سكون ونسيان وغيبوبة شاملة. إني جمود وموت خارج حدود المكان والزمان.

خلال حقب لا تحصى من لا وجود وأنا حبيس رحم دُرَّتي. تنمو فيّ حاجة غريبة إلى أن أكافح جمودي وإندماجي. أقرف من نعومة ملمسي، وأختنق من صلابة أعماقي. حدودي الدُريَّة تضيق علي وتكبت فيَّ رغبة غريبة لم أعرفها مسبقاً: حركة وعربدة في وجود بلا حدود، وانطلاق في آفاق مجهولة. إني أكافح جمودي واندماجي، أتكور حول ذاتي وأكدّس حاجة متعاظمة إلى الحركة.

في لحظة سأم كبرى يتصاعد فيّ غضب مقدس. يتراكم في أعماقي كلّ ما في كينونتي من طاقة للتمرد وحاجة إلى الانعتاق. بصورة لا أتوقعها... أنفجر! أنفجر بعنف يجعلني أتمزق أشلاء لا متناهية، حتى أحسب أني أستحيل إلى نثار أزلي الانقسام، مصيري التلاشي في المجهول.

أنا الدُرَّة المتوهجة، أتناثر إلى عدد هائل من الأجرام والأكوان والأفلاك، تتقاذف مني أشلاء وحمم جبارة، تحيل الوجود إلى احتفال ناري من حركة أزلية وأضواء خلابة وانفجارات متعاقبة.

اكتشف أني موجود، أني أتحرك وأتلذذ بتحسس تكويني، أتلاعب بوجودي وأعبث بأجزائي المتناثرة.

أدور حول بعضي البعض، أتنافر وأتجاذب، أنطوي واتمدد،

أتعاطى وأتلقى. أنا اللذّة: رعشة الوجود الشبقية الخلّاقة. أفجّر هذا الكوكب وأطفىء نيران ذاك. أجعل بعضها يرتطم بآخر، وبعضها ينفصل عن بعض. أخبو شموساً وأشعل أخرى. أغيّر شكل وجودي الهلامي كيفما أشاء. أرصع جسدي بنجوم، وأزيّن وجهي بأقمار. أختار الليل لراحتي، وأتأمل صورتي في مرآة أعماقي، والنهار للعبي وممارسة سلطتي على أجزائي.

حُقب طويلة تمضي وأنا أزاول عبثي بذاتي، وأتلذذ بسلطتي على مكنوناتي، بالتدريج تبدأ اللذّة تضمر والسأم يسري فيّ وينمو. تكرار اللذة يبدد متعتي، ويُميت أنفاس اندهاشي. السأم نقيض اللذة، ينبثق من تكرار واختلال التناغم بين الاضداد. هو المغالاة في التقارب إلى حد الجمودوالانقبار،وهو المغالاة في التباعد إلى حد الضياع والانتثار. إني في الإندماج أسأم، في الانفصام أسأم، ولذّتي تكمن في انسجام ترددي بين الاثنين.

أتمعن في حالي، وأشاهد مكنوناتي الكوكبية تخبو وتبرد، تتجمد وتتصالب وتستحيل إلى كرات ملونة. تدور حول نفسها وحول شموس تحتمي بلهيبها.

هناك كوكب يجلب انتباهي. ما الذي يشدني إليه؟ ألوان خلابة أم هيئة مغرية؟ لعله في الموضع الأهم من تكويني: الرأس.

كوكب الأرض هذا ينقذني من سأمي، يصير لي موضعاً خصباً لازدهار شهواتي، أحسه وأداريه، أمارس عليه إبداعي وابتكاري، أنفخ فيه ريحي الخلّاقة، أسقيه مياه خصوبتي.

اشقّ بحاراً وأنهاراً، أحفر أودية، وأبني جبالاً، أخلق أراضي وأحيلها إلى صحارى صلعاء، وأجعل غابات تنمو في أراض أخرى.

أتولع بهذا الكوكب الأرضي. هو سلوتي ومبتغى لذَّتي. أداعب جباله الناهدة، أشمُّ رائحة غاباته، أبلل روحي ببحاره وأنهاره، وآتيه بصحاريه الموحشة. عندما يهدّني التعب أستبرد بمساحاته المجمدة وأتركها تذوب وتتبخر لتصبح غيوماً أنفخها في الأعالي.

إنه كوكب يمنحني لذَّة إدراك الجمال، ولذَّة أسمى وأشهى: إدراك الحياة وامتلاكها. أهناك أمتع من مراقبة الحياة تنمو على الأرض؟ أشجار وأعشاب وأسماك وحشرات، تتلاقح وتتوالد وتتكاثر ثم تهرم وتضمر وتموت.. أيَّة روعة!

إنها لذَّة أن تبني وتهدم، أن تخلق وتُميت، أن تمنح الحياة وتستلبها. هي أعظم ملذَّات السلطة. أدرك خلودي من خلال ميلاد وفناء مخلوقاتي.

لا أكتفي بهذا. أمضي إلى الامام في إبداعي. أخلق حيوانات ذوات إحساس لكي تدرك ما أفعله بها. تفرح وتحزن، تخاف وتتألم، تجوع وتبتهج بالشبع، والأهم من كل هذا أنها تحس الموت وتهابه. الحيتان والزواحف والكواسر والطيور، جميعها تحت سلطتي. مخلوقاتي التي تُشعرني بكرمي وشحي، بشفقتي وطغياني. كما أشاء أحييها، وكما أشاء أميتها. إنها عبدي الوضيع وإبداعي العظيم.

كوكب الأرض أخلقه وأكمل به خلقتي. خلاله أدرك طبيعة

وجودي. إني جسم جبار: المجموعة الشمسية راسي، والأرض دماغي ومأوى خيالي.. إنها مركز هواجسي وأحلامي وإدراك ملذّاتي.

تطور الحياة على كوكب الأرض يعني تطور الخيال في رأسي. الكائنات الحيَّة خلايا تفكيري. جميع ما تقوم به النباتات والحيوانات هي صور يبتكرها خيالي.

قبل أن ينوجد الإنسان في رأسي، كان تفكيري في أرقى صوره ممثلاً بالحيوانات؛ وديعة ضعيفة ووحشية كاسرة. لذّتي تتصاعد إلى أقصاها، عندما أتنصت وأشاهد خلاياي الحيوانية تمارس غرائزها في رأسي: فحيح الحُبّ المتفجر وتأوهاته، صرخات ضحايا الافتراس وفتك الوحوش الجائعة.

لكن الحيوانات تبدأ تثير سأمي: تفرح وتحزن، تُحب وتكره، تخاف وتجرأ، لكنها لا تدرك من الوجود سوى البقعة التي تقطنها. تتوالد وتحيا ويلتهم بعضها البعض وتموت وتستحيل الى تراب، دون أن تفكر، حتى للحظة واحدة، انها جزء من وجود خالد ومطلق. ولادتها رغبتي، وحياتها خيالي، وموتها تعبي.

السأم من جديد، يتسلل كداء في كياني. لعلي سأنفجر مرة ثانية، أبحث عن مصير آخر ولذة جديدة. أخشى على نفسي من نفسي. أحاسيس السأم تتراكم وتتراكم طوال أزمان وأزمان، حتى انطلق فجأة بانفجارات متعاقبة: براكين وزلازل وعواصف وطوفانات جبارة تمحق عن كوكب خيالي خلاياي البليدة.. مخلوقاتي التي تقرفني بعدم إدراكها لجبروتي.

تصطبغ الأرض بدماء وحوشي. حتى البحار والسُحب تغدو حمراء بدمي. أفرغ فيها عواطف كبت وأزمان سأم.

بالتدريج، غضبي يخبو، وانفجاراتي تخفت. تهدأ العواصف، وتنقشع العتمة الحمراء. تعود البحار الى أحواضها والأنهار الى مجاريها. شمسي تسكب اشعة لاهبة على أطيان أرضي المعجونة بمخلوقاتي.

كائنات غريبة تنبجس من بين الأطيان. كالفطر تنمو وتتمطى تحت الشمس مجففة نفسها. مع الوقت، تتصلب وتتخذ هيئة حيوانية هي من أجمل ما أرى.

أمارس لذتي بمراقبة مخلوقاتي الجديدة هذه. أعينها على النمو، وأضفي عليها تلاوين إبداعي: أحسِّن هذا الأصبع، وأصلِّب هذا الثدي. أغيِّر موضع الأذنين، وأصغِّر منخري الأنف. أطيل الحنك وانتف الشعر، وأرتِّب العضوين ليسهل تلاقيهما واندماجهما.

إنها مخلوقاتي الجديدة العظيمة، مصنوعة من انفجار حاجتي الى لذة أبدية لا تنضب.. من غضبي وخيبة أملي وتوقي الى جمال أمثل وانسجام مطلق. أجعلها تتمتع بأرقى خصال حيواناتي القديمة: وفاء كلب وخداع ثعلب، وحشية نمر ووداعة غزال، انقضاض صقر وانسياب حَمَام، تطفّل جرثوم ونفع نحل، بلادة سمكة وذكاء قرد، قُبح اخطبوط وفتنة حصان... ثم أنفخ عليها ريحي الخلّاقة.

تصير إنساناً... إنه اكتمال خلقي وأسمى ما في إبداعي. الخلايا الأطور والأمثل في رأسي. مخلوق على صورتي، نموذج

باهر لتكويني. أميِّزه عن جميع كائناتي. أضع فيه أعظم خصالي: «الخيال»: إنهـا ملكة التفكيـر بما فـوق المرئي والمحسـوس، تذكُـر الماضي واكتسـاب الحاضـر وتكهّن المستقبل. والأهم من هذا، انه يدرك وجودي، يتذكره ويحلله ويتنبَّأ به، يهابني، ويشيد لي المعابد، ويقدم لي القرابين، ويؤلف عني أسراراً وأساطير. باسمي ينشر الحب والأخوَّة، ويقدس العدل والحق، وباسمي يعلن الحرب، وينشر الخراب، ويسفك الدماء، ويمارس الطغيان. إني للإنسان رمز الخير عندما يصنع خيراً، وإني له رمز الخير أيضاً عندما يقترف شّراً. لذتي جنَّته، وسأمي جهنَّمه، ونزواتي هي شيطانه.

بالإنسان أكمل خلقتي، وأبصر وجودي، وأصبح قادراً على سرد حكايتي. بالإنسان أجعل الكائن الحيّ يسمو ويرقى، يبتكر ويخلق ويعطي. بالإنسان أيضاً أستحيل أنا إلى إنسان يحمل جوعاً أبدياً إلى المعرفة وتعرية المستور وإضاءة المُعتم، أمضي وجودي بين جواب وسؤال، يقين وشك، تقارب وتناء. بالشك والسؤال أخاف وأبتعد، وباليقين والجواب أثق وأندمج. جواب يقودني الى سؤال، وسؤال يقودني الى جواب. انها لذَّة المعرفة وحركتها السرمدية.

تتعاظم قدرات خيالي وتتنوع عوالمي. امضي شغوفاً بخلق التاريخ، ولادة وموت، دول وشعوب وأديان. انتصارات وهجرات وثورات واكتشافات... جميعها خيال بخيال يدور في رأسي. جموع البشر لا تدرك أبداً حقيقة كونها شعوباً من الخلايا، تعيش نزوات وجودي، سأمها من سأمي ولذَّتها من لذَّتي، تحيا وتموت وتتجدد في مخيلتي.

سعادتي بمخلوقي الجديد ما تلبث أن تتصدع. لا يأتيني السأم وحده. بل يجلب معه طوفاناً من أسئلة وشكوك تمس إيماني بتاريخ صيرورتي. ليتني ما خلقته... يجعلني أفقد يقيني بحقيقة كينونتي المطلقة. أأكون أنا حقاً خالق الإنسان؟

معضلتي تنمو مع توغل الإنسان أكثر فأكثر في متاهات الأسئلة والأجوبة. كلما تتراكم مكتشفاته، تتراكم شكوكه وشهوات تمرده على سلطتي كأتباع ما أن يطّلعوا بإفراط على أسرار سلطانهم وخفاياه حتى تتصاعد فيهم روح التآمر والخيانة.

إني أتساءل أحياناً كيف يتسنّى لمخلوقي أن يخرج عن طاعتي إن كان حقاً جزءاً من وجودي؟ أيتنكر عضو لباقي الجسد؟ أليس الإنسان ما هو سوى خيال في رأسي، وحياته أجمعها تدور في ذهني، وأفكاره انعكاس لأفكاري!؟ إذن، المعضلة تكمن فيَّ أنا... شكّي في ذاتي أنا، يعبّر عنه الإنسان بشكّه فيَّ.

إني أفكّر أن الإنسان مخلوق على صورتي، يمتلك دماغاً فيه ما لا يحصى من خلايا الخيال، وهو مثلي يخلق عوالمه وشعوبه وأحلامه، يخلق في رأسه تاريخاً كاملاً يبدأ بعذابات انفصام، وينمو في حركة سرمدية تبتغي حُباً واندماجاً. إذن هو مطلق مُصغّر يعيش في رأسي أنا المطلق الأكبر.

إدراكي لهذا الأمر يقودني إلى اعتقاد غريب يهزّني ويحطم فيَّ يقيني بكمالي، ويبدّد لذّتي بجبروتي: إذا كان الإنسان بما يمتلكه من ثقة بذكائه وكماله وسموه على باقي المخلوقات، ما

هو سوى خلية خيال في دماغي، وهو لا يدرك حقيقته هذه؛ قد يخمنها أو يتخيلها إلّا انه أبداً لن يلمسها ويتيقن منها. إذن، كيف لي أن أتيقن من أني لست مثل الإنسان!؟ أيعقل أن أكون انا خلية كُبرى تائهة في وجود أعظم من إدراكي؟ ما الذي يقنعني بحقيقة ذكرياتي وتصوراتي؟ ربما أني لست سوى خلية خيال في رأس مُطلق أعظم وأجلّ مني بما يفوق قدرتي على إدراكه، وجميع مراحل وجودي حتى الآن ما هي سوى خيال في رأس الكائن المطلق الأكبر.

إذن من أنا...!؟

ربما أني لست أكثر من خلية خيال في رأس إنسان. الإنسان هو مُطلقي الأكبر وهو عبدي. إني خالقه لأني وجوده الكلّي، وهو خالقي لأني بعقله اكتشف وجودي. إنه عقل الوجود وكينونته العليا ومركز خياله وأسمى مراحل الانسجام والتناغم بين المتضادات: ذكورة وأنوثة، فاعل وراع لفعل؛ حكمة ومشاعر. الإنسان لذّة الوجود القصوى. بالارتعاشة تتحد بذرتاه، وبالارتعاشة تنمو حياته.

إني كلّي... إني مطلق. إني الحياة: شهوة الجسد للحركة والانطلاق في المجهول. إني الموت: شهوة الجسد للإندماج والسكون في أعماق الطبيعة الأم. إني الحُب: شهوة شهوات واتحاد الملذات والبحث عن سكون الموت في حركة الحياة وحرارتها. وجودي في انسجام حيرتي، في تضادي المتناغم بين إنسانيتي الفانية وكينونتي الخالدة.

لا تزال قبائل روحي وشعوبها تنطلق في أرجاء رأسي،

تجتاح غابات وصحارى وبحاراً، تمرُّ بمدن وغابات وقصور وسوح حروب وقوافل في صحارى وشواطىء بحار وأنهار وأهوار ومقابر شاسعة. حالات ولادة وموت.

تستقر روحي في قبائل الأهوار والصحارى. تعيش معها حيوات شتًى، ترحل إلى الشمال، إلى أنهار وصحارى وبحار وأهوار وجبال، تمارس الحب وتبني السدود وتحفر السواقي وتشيِّد المدن والمعابد والأبراج والاهرامات، تزرع وتصنع وتحكي وتكتب وتخوض الحروب. طوفانات وطواعين واجتياحات جيوش غزاة. تولد روحي مرات ومرات، وتموت روحي مرات ومرات. تسقط في هاوية سحيقة... تسقط وتسقط وتسقط حتى ترتطم.

وجدتني مبطوحاً على الأرض. كنت وحيداً يغمرني ضياء الشفق الأحمر. بدت السماء ملطخة بألوان وشتات غيوم، كوجه امرأة متبرجة. انتبهت إلى صرخات بعيدة ترتج بين أرجاء الوادي، تنادي باسمي. نهضت مرتعباً. تفحصت جسمي بحثاً عن كسر أو جرح. كنت سالماً بثيابي ومسدسي، وقارورتي متكئة على صخرة وبجانبها تلك القارورة الزجاجية.

كانت صرخات (آدم) و (موسى) الدليل تشق الوادي منادية باسمي. منذ ساعة وهم يجولون الوادي بحثاً عني. أخفيت القارورة والقنينة في حقيبتي، وقمت إليهم. اختلقت عذراً أمام الدليل عن اغفاءتي المباغتة عند صخرة على سفح الجبل.

عندما اختليت بـ (آدم) وحكيت له ما جرى لي في ليلتي، لم يصدقني لولا رؤيته للقنينة. أطلعته على ما عرفته من الشيخ

من أجل إبطال سحر القارورة: بعد أن تخرج (هاجر)، تُملأ القارورة بهذا السائل وتُغلق، فتتحرر منها المرأة إلى الأبد. الشيخ قال لي أيضاً إن سائل القنينة هو إكسير خلود، من يشربه ستبتلعه القارورة من جديد ويصير مثلما كانت (هاجر).

هكذا إذن، كما ترون، أنهينا سفرتنا في (سيناء) وعدنا إلى (جنيف)، بعد أن أمضينا ساعات الصباح الأولى نجول دون جدوى في أنحاء جبل موسى وجبل كاترين. اختفت المغارة ومعها غيمة رحلتنا. ليس هناك غير صخور حمراء بينها عثر الدليل على بيضة ثعبان، وضعها في كيسه ليعمل منها تعويذة لطرد الشّر وكسب الأحبَّة.

فصل سابع

لكي أجنّبكم الملل من الاسهاب في سرد هذه الحكاية، أدخلكم مباشرة في فصل انتقالي، ويمكنكم اعتباره (أخيراً) إن كان لكل بداية آخرة. وهو كما سترون فصل فراق وغياب وانتقال. وصلنا إلى (جنيف) ونحن بلهفة إلى تجربة سائل الخلاص على حوريتنا. ذهبنا من المطار مباشرة إلى بيتي. كانت الساعة الرابعة عصراً وشمس حزيران تُزين سماء البحيرة، جاعلة سطحها ينبض بارتجافات متلألئة كهشام مرايا. أقفلنا باب غرفتي وفتحنا نوافذ وأسدلنا ستائر، ثم أحرقنا بخوراً ورتبنا أفرشة. هيأنا لفافة حشيش وجلبنا شمبانيا وعرقاً سورياً. أشعلنا شموعاً يتراقص وميضها على إيقاعات عودٍ وطبلة، ثم توكلنا..

أخرجت القنينة، وتناول (آدم) القارورة وأخذ يفتحها. بدا كأنه يشارك الأضواء ارتجافاتها. أستكون حقاً آخر مرَّة تخرج فيها حوريتنا من قارورتها؟ سينغلق عليها عالم فنائنا لحظة يغرق في السائل عالم خلودها. آخر مرة أخرجنا فيها (هاجر)، كانت ليلة أمس في فندقنا في (القاهرة). أخبرناها عن الشيخ وأطلعناها على قنينة الخلاص. كادت تفضحنا. ألقت بنفسها

علينا وراحت تعانقنا وتعضنا وهي تصدر أصواتاً مكتومة بين نحيب وهلاهل، وعادت إلى قارورتها بانتظار بلوغ (جنيف).

ها هي الآن تخرج إلينا مغادرة قارورتها إلى الأبد. أجزاء جسدها كانت متفتحة لاستقبال عالم جديد ـ قديم، وهي في كامل نضجها وطراوتها، وحلمتاها محمرتان شبيهتان بعيني مهرج.

أبت ارتداء ثوبها لأنها تريد أن تمضي لحظات قطع سرتها عن عالم قارورتها عارية كالوليد. تناولت كأس شمبانيا وشربت نخب لقائنا الأبدي. استنشقت نفساً طويلاً من اللفافة، ورمقتنا بعينين متألقتين بمشاعر غامضة، وقالت إن حياتها ستظل حتى الموت تابعة لحياتينا، وإنها لن تنفصل عنا أبداً. كتمتُ ضحكة عندما فكرت أن هذه الحورية هي جدتنا الكبرى وعشيقة أسلافنا منذ بضعة آلاف عام.

لم ينطق أي منا بكلمة. كان الفراغ مملوءاً بأنغام عودٍ تراقص إيقاعات طبلة وصفير ناي. نظراتنا كانت تتلاقى وتتناءى محاولة دون جدوى تغطية مشاعرنا. قرأت حُباً في نظرات (آدم) وأسئلة يخشى التعبير عنها. في تلك اللحظات، كنت فريسة أفكار وأفكار، ورأسي كان مذياعاً اجتاحته مئة موجة. كانت موجة الشهوة والامتلاك هي الأقوى. كنت أرى علاقتي بـ (آدم) قد عقدتها وعمقتها (هاجر) بغرائبها وأعاجيبها، كان يستحيل في روحي إلى طفل وديع تكومت عليه حشرات أسئلتي.

تحت أنظار (هاجر) المتلهفة، تناول (آدم) القارورة ومدَّها

إليَّ. فتحتُ القنينة وشرعت بما أستطيعه من هدوء في سكب السائل في القارورة. في هذه الأثناء كانت (هاجر) تتكىء على حائط وتغمض عينيها غارقة في غيبوبة بينما السائل ينسكب مشكلاً خيطاً دقيقاً يبرق بوهج شموع.

عندما انتهيتُ، ظلت هاجر غائبة مسبلة الجفنين. لأول مرة أراها تتعرق وتنبجس من جسدها قطرات لزجة تنزلق من جبينها وأبطيها. كانت تعيش لحظات تاريخية ستحررها إلى الأبد من عبودية خلودها.

وضعت القارورة في حقيبتي. وبحركة واحدة رفعنا يدينا، أنا و (آدم)، ولمسنا (هاجر) معاً في اللحظة نفسها. فتحت عينيها وفاجأتنا بهيئة غير معهودة: نظرت إلينا بحيـاء، ورسمت ابتسامة تعبة قلقة، وبان تعب بشري على جسدها.

منذ تلك الأمسية، (هاجر) لم تعد (امرأة القارورة).

في هذه الفترة، وقبل أن تحدث الكارثة، استحوذ على (آدم) فرح طفولي لنجاحه في تحقيق رغبة عشيقته في الانعتاق من القارورة. كان يتأملها ويحلم أنها ستندمج بالحياة، ويشعر بالزهو كإله ينبهر بروعة مخلوقه. لم يكن ينصت لي عندما أقول إنها ستفقد إلى الأبد قدرتها على خلق لذّة الخلود، سـتغدو امرأة أرضية، عبدة للحياة ببهجتها وبؤسها، خاضعة لأهواء المناخ وقوانين الدولة وأخلاق المجتمع. سوف لن تكون لذتها كامنة في إرضاء عشيقها. قلق الموت والمرض سيدفعها إلى استثمار كل لحظة من عمرها من أجل الأفضل: سوف تـحب، تكره، تغار، تكرم، تقسو، تتقن التهذيب وطقوس العلاقات اليومية.

وكان (آدم) يحلم أنها عندما تحصل على إقامة رسمية ستمضي الوقت في دراسة اللغة الفرنسية والبحث عن سكن مناسب والاتصال بالناس والتعرف على(جنيف) والتطبع على الحياة الجديدة. سوف لن تفوت لحظة واحدة دون اكتساب وتعلم. لذّتها الكبرى ستصير المعرفة. سينبثق إلى الوجود نبوغها في التاريخ ولغات المشرق القديمة.. لغات عشاقها من الأحفاد: سومريون وبابليون وأقباط وبربر وسريان وعرب. بل انها ستبهرهم بمعرفتها للإغريقية وللاتينية. ستجلب الانتباه بمعارفها الموسوعية المفصلة عن تاريخ شعوب شرق البحر المتوسط وحكاياتهم وعاداتهم، وستكذب حين تدعي أنها قد درستها.

لكن الكارثة قد حلت مباغتة كصاعقة أحرقت حتى جذور حلمه. لم يخطر بالحسبان أن تكون النهاية سريعة مأساوية وساخرة إلى هذه الدرجة. فبعد أن أمضينا الأسابيع الأولى في تدبير وضع إقامتها الشرعية كامرأة من هذه الدنيا. بعد جهود حصلنا لها على أوراق هوية مزيفة. أسكناها في فندق وعلمناها كيف تجيب عن أسئلة الشرطة، ثم كلفنا أحد المحامين ليحصل لها على إقامة لجوء سياسي.

حتى الآن لم نعلم بالضبط كيف حدث الأمر. جهزناها صباحاً، ورافقت المحامي إلى شرطة الأجانب، ولكنها لم تعد. انتظرنا وبحثنا ولم نجدها، حتى اتصل بنا المحامي مساء وقال إنهم سيطردونها.. سيسفرونها. هكذا ببساطة مأساوية ما خطرت على بالنا حتى بصورة نكتة. لم تنفع جميع اتصالاتنا بمقرات الأحزاب ولا بالمنظمات. هكذا وكأن قوة المصير

اجتاحت قلوب جميع المشرفين على تسفيرها. قالوا إنها لا تتمتع بشروط حق اللجوء، وسبب الحرب ليس كافياً، خصوصاً وانها امرأة. وقالوا إن بلادهم مكتظة بالأجانب ومضطرون إلى مثل هذا الإجراء. وقالوا إنهم متأكدون أنها لن تضطهد في بلادها. وقالوا ثم قالوا، وأنا و (آدم) أمضينا الليل ثملين برعب الكارثة. عند الفجر وكانت غيوم سوداء تغطي سماء المطار، عندما لحقنا اللحظات التي لاحت فيها (هاجر) محاطة برجال البوليس وهم يقودونها إلى الطائرة. صرخات (آدم) الهستيرية لم تسمعها. وعندما أغلقوا الباب عليها استحالت الغيوم إلى غربان سوداء حطت على الطائرة وحملتها محلقة بها في سماوات الغياب.

صمتنا. أدركنا أن أية محاولة كلام مهما كانت فلن تنفع. الفأس قد وقع بالرأس، وأي كلام سوف يعمقه أكثر. النسيان هو الحل. هذا ما قلته أنا، أما (آدم) فالنسيان يعني له المستحيل إذ انبجست فيه فوارة شهوات مخبولة بتعذيب الذات وانتظار الخلاص. (امرأة القارورة) بفتنتها الخالدة قد أدخلته جنة حلمه، وعندما صارت فانية راح ينزلق من جديد نحو جهنم انتظاره. يوم هبطت من علياء خلودها واختفت في الغياب راح يتهاوى وراءها مثخناً بجراح سقطته وبحثه عن حورية جنته.

كان يلتقيني كل ليلة ويبوح لي بشجونه، وكلماته ترتسم أخاديد على جبينه. يقول إننا جبناء، كان يجب أن نفعل المستحيل لنحميها. إننا قد خناها عندما تركناها يرحلونها. ثم يفرك عينيه ويقول إنه تعب من السؤال وليس من الخمر. كان يمضي نهاره في محاولة العثور على أيّ خبر من (هاجر). دون

جدوى اتصل بالصليب الأحمر وببعض المعارف من المسافرين إلى البلاد. «لا شيء.. لا شيء.. سوى أخبار الحرب...».

.. كان يدمدم مع نفسه ويغرق في تأملات خيبته وكآبته. بعد أن يثمل ينطلق بشكوى تنمو وتنتشر. تارة يتحدث كفيلسوف جوال، وتارة يرقص بطريقة تثير سخرية وشفقة. كان يبدو كمدمن محروم من حاجته. أدمن ليالي (جنيف) بعبثها المحدود والمكرر. كان توقه يشتد إلى لقاء الأصحاب ليشكو لهم خيبته، ويظل يسرد عليهم حكايات اسلافه ومغامراته مع (امرأة القارورة)، حتى أنهم بدأوا بالتهكم عليه واعتبروه ضحية أوهام مرضية. أما شغفه بالنساء فكان يطغى ليصبح هوساً. كان يريد إخماد جوع ذئب مسعور أطلقته (امرأة القارورة) ورحلت... ضاعت في غياهب أرض الأسلاف.

يوماً بعد يوم كنت أرى (آدم) ينحدر في دربي حتى تجاوزني. لم يعد يهتم بـ (مارلين)، ولا بحاسوبه وعمله. راح يمضي لياليه في ثمالة بين المراقص والحانات مفتشاً عن حوريته في كل امرأة.

ذات ليلة سبت، بعد تسكع بين حانات وكؤوس نبيذ، يجد نفسه في قاعة كبيرة، تصدح بين أرجائها موسيقى صاخبة وأناس يرقصون محتفلين. إنها حفلة تنكرية يرتدي فيها الحاضرون أقنعة حيوانات وتيجان وأزياء أمراء عرب ومحاربين رومان وصيادين من عصور بائدة.

رغم ثمله فإنه يحاول أن يغصب نفسه على إبطاء الشرب

كي لا تسقطه الخمرة وتفسد ليلته. يشاهد مقاعد مترامية بين جمهور في حركة دائبة. شبان وشابات بعضهم يدخل حلبة الرقص ويضيع في غمرة عتمة وأنوار براقة، وبعضهم يغادر الحلبة، متصبباً عرقاً.

يرسم على وجهه ملامح وقار، ويدع نظراته تسرح بنرجسية على أجساد الراقصين والراقصات، كأنه يستمد منهم كبرياء وجوده.

نظره يتركز على امرأة، كما لو انه يعرفها. ثيابها مرقطة بزهور وفراشات. بلوزة قصيرة تكشف عن زندين بضين وخصر نحيف وسرّة شهية. بنطالها يضيق على فخذين وردفين متمرسين بالمشاكسة بينما رأسها يتلوى بتناغم مع جسم نافر كمهرة جامحة.

إنه يفكر أين رأى هذه المرأة. يبدأ بـ (مارلين) و (هاجر) ثم يتقهقر إلى أعوام (إيمان) حتى تبزغ باهرة كنهار ثلجي تلك (السجينة) التي ما فارقت روحه، يراها تترك قيودها وتتسلل من غرفة تحقيق رأسه. حركات هذه المرأة تثير فيه رغبة جامحة في الافتراس، أن يلتهمها وتلتهمه مثل ثعبانين يتقاضمان من ذيليهما حتى النهاية. نظراتها الصقرية تزيد من نضوح عرق حار. ثمة حكات ونغزات طفيفة يحسها تنمو في أنحاء جسمه، وتسري قشعريرة خدر في رأسه هابطة إلى أسفل ظهره. تغمره أمواج متلاطمة من لذة ووجع.

يصحو من استغراقه على ضحكات قريبة منه. شاب وشابة يلمسانه من خلفه ويقولان له بمزاح: «... ذيلك رائع.. كأنه حقيقي!».

يلتفت إليهما، ويشاهدهما يمسكان بذيل طويل غليظ، ليس لعبة، بل هو مكسو بشعر كثّ، وملتصق بلحمه من نهاية غضروفه وقد شق بنطاله. يحاول (آدم) أن يطمئن نفسه أن لا أحد ينتبه إليه فالجميع متنكرون.

يستدير عازماً أن يغادر القاعة ليتدبر حاله. تتوقف الموسيقى والرقص ويسود لغط بين الجمهور. تتردد كلمة (اللعبة.. اللعبة)، وتمتد أصابع مشيرة إليه. يحيطون بالمرأة وهي واقفة بغرور تحدق فيه وعلى محياها ترتسم ابتسامة تجمع بين الوداعة وشهوة الافتراس. الأصابع والعيون تزداد أعدادها وهي تشير ناحيته.

الجمهور ينزاح مشكلاً دائرة حولهما والمرأة شامخة أمامه كندّ قديم. (آدم) يتجمد في مكانه، ولولا أسئلته المتراكمة لشك في حقيقة كونه بشراً مثل الآخرين. صوت مكتوم يعربد في أحشائه يدعوه إلى منازلة المرأة ونهشها. فجأة تنطفيء مصابيح القاعة ويُسلط عليهما ضوء شديد شاحب، وتنبثق عبر مكبرات الصوت ضربات طبول بدائية وأنغام ناي حزين تتصاعد بتناسق مع اشتداد الضوء.

جسم (آدم) ما يكف عن التثاقل والانتكاس. انه يبذل جهده ليقاوم هذه الحاجة إلى الانحناء على الأرض. يجد نفسه مجبراً على الوقوف على أطرافه الأربعة، ورأسه يحوم مهتزاً وعيناه ترمقان المرأة ببلاهة، وهي تقبض بكفيها على سيف متوهج كجمر. تسري فيه رعشة رعب عندما يرى ظلّه على الأرض: ظلّ ثور حقيقي.. ذيله وقرنيه وبوزه ووبره، بل حتى مشاعره يحسها لأول مرة هكذا بدائية ووحشية بلا أعراف أو محرمات.

مع اشتداد قرع الطبول وتصاعد أنين الناي ينبثق شاب وشابة من بين الجمهور، ويقتربان منه بخطوات مسرحية، ويراوغانه بحركات ماهرة مدروسة. عندما يقتربان منه ويمسانه بخفة، يشعر بنغزتين حادتين كأنهما دبوسان يتوغلان بين أضلاعه. تتعالى هتافات تشجيع مصحوبة بضحكات وأصوات تُقَزز تستقبل الشابين وهما يرجعان إلى عتمتهما.

روحه تهتاج وتنزف بأسئلة تفوق نزيف جراحه، وتبدأ أعاصير من القلق تجتاح كيانه، وأعصابه تبث إيعازات رعب تجعل القلب تتسارع نبضاته ويضخ دماً كبارود في العروق، فيحمر وجهه وتتجعد ملامحه وتجحظ عيناه، وتتكور في أحشائه صرخات احتجاج تعلو وتعلو، ويفتح فمه، ولكن ليس كلمات رفضه هي التي تخرج إنما خوار ثور غاضب وجريح. ثم يندفع بجموح نحو المرأة. عيناه وقرناه مصوبة على سرتها، لكنها تزوغ عنه بحركة متمرسة، وتثب واقفة قباله ووجهها الذي لم تفارقه ملامح الشفقة والاشتهاء، ينضح عرقاً على سيفها ويزيده بريقاً.

مرة ثانية يخرج شاب وشابة، ويراوغانه بمهارة ومرح ثم ينغزانه بين أضلاعه، ويعودان تغمرهما عتمة وهتافات تشجيع وتقزز. يشعر بنار تشبّ بلحمه وينسكب سائل حار على خديه بينما ترج في صدره كلمات تنمو وتنمو كجنين:

«يا إلهي... كم إني وحيد!».

هدير الطبول والناي يطغى على صخب الناس، والمرأة تدور حوله بإغواء، فتهتز تعرجات جسدها لتموج زهرات وفراشات

ثيابها بتمايلات نشوانة. يهتز رأس (آدم) يميناً ويساراً ويقعد مستنداً إلى طرفيه السفليين، ليلملمَ ما تبقى من قواه مدفوعاً ببصيص أمل إلى أن يخرج حياً من المهزلة. لكن في أعماقه ثمة هاجساً يجول، يرغب في أن تحل النهاية فوراً ويُسدل الستار على المهزلة وعلى حياته معها. ثم تهتز أطرافه ويثب من مكانه كأي ثور هائج يتركز مصيره على طرفي قرنيه، وعيناه مشدودتان إلى السرة بحبل غير مرئي من نور وموسيقى...

دون أن تميل المرأة عن مكانها سوى خطوة واحدة تتحاشى نطحته بخفة، وترفع سيفها الجمري، وتصوبه بدقة لا تُخطىء، ويهبط مختالاً براقاً ليخترق أسفل العنق ويتوغل نارياً في صدره. يستقر النصل في القلب فيقشعر بارتعاشة محايدة أصيلة هي خلاصة رعشات الوجود..

تنهار قواه ويتداعى مقعياً على الأرض. لم يعد يسمع شيئاً. وتحت الضوء الشاحب يصطبغ ظلّ الثور بالدم. بينما هو يضطجع على الأرض، يشاهد وجه المرأة يحوم فوقه وفي عينيها نظرات متأملة كأنها تتطلع في لوحة. تتكاثر حولها وجوه رجال ونساء عرفهم وحمل أسماءهم وعاش حيـواتهم ولا تزال بذرات كينوناتهم تتخاصب فيه صانعة رعشة الحياة.

في أثناء لحظات احتضاره وقبل أن يغمض عينيه، دمدم لسانه: من أيّة سلالة حمقاء ينحدر كياني؟ من أيّ تاريخ طائش يتوارث وجودي؟ كم صحارى موحشة في روحي.. كم أنهار خِصب وموت في عروقي؟

عندما وجدته مبطوحاً على الحائط لم أتعرف عليه في البدء.

كانت الساعة تتجاوز الثالثة صباحاً وقد عدت من أمسية عاقلة مع بعض الأصحاب بينهم (مارلين). لقد تخلف (آدم) عن موعده وتركنا نمضي الأمسية مشغولين بغيابه. حتى زوجته لم يخبرها. كنا نعرف في داخلنا أنه قد بدأ يتغير متحولاً إلى عابث سئم لا يحتمل أي ارتباطات مهما كانت أولية وضرورية. أسفه المتفاقم خلق فيه تقلباً في المزاج وميلاً عنيفاً إلى إيذاء النفس. منذ ساعة تركت (مارلين) بعد سينما ودردشة في مقهى. كنت راغباً في أن اكمل ليلتي في حفلة راقصة على أمل العثور على امرأة تقبل أن تمضي الفجر معي. قريباً من القاعة في شارع (كاروج) وجدت (آدم) ثملا والنبيذ الأحمر يلطخ ثيابه. لم اسمع منه حكاية تحوله إلى ثور ومقتله بسيف المرأة إلّا في اليوم التالي، بعد أن استيقظ ظهراً في غرفتي.

كان لا يمل أبداً تذكر (هاجر) وتكرار سؤاله: «ماذا تعتقد.. أين هي الآن.. ماذا فعلوا بها.. هل اكتشفوا أنها تحمل هوية وطنية مزيفة.. أية أحكام سيطبقون عليها.. وهل يصدقون حكايتها لو أباحتها لهم.. ربما سيعتبرونها معتوهة أو جاسوسة.. حتى وان عفوا عنها، كيف يمكنها الحياة دون أحفادها.. لعلهم...». ولم اكن أجيبه بأية كلمة إنما كنت أتخيل لو أنها بقيت حتى الآن كيف ستكون علاقتي بها. يقيناً أني سألتقي بها على الدوام، ولن أتمكن من إقناعها بالاستمرار في عشقنا. ستقول إنها لم تعد ترغب في ذلك. صارت مثل جميع النساء، من الصعب عليها فصل الجنس عن العاطفة. بقدر ما يمتزج الجنس بالعواطف وأحلام الحُب، بقدر ما تحصل على لذة أكبر. أليست الشهوة والعاطفة لدى المرأة ممتزجتين تماماً،

من الصعب فصلهما عن بعض؟ يبدو أنهما عند الرجل متجاورتان، يمكنه مزجهما ويمكنه فصلهما. وستقول لي (هاجر): ربما لهذا السبب تستطيعون أنتم الرجال أن تحصلوا على لذة من البغايا، بينما هن لا يحصلن إلّا على نقود وقرف. وستقول: لعل الأمر نابع من التاريخ. أليس منذ الأزلية وفعل الجنس عندكم أيها الرجال يبتغي اللذة المانحة للنسل بينما الجنس لدينا نحن النساء يبتغي النسل المانح للذّة، وفعل لذتنا مسكون بهاجس تكوين إنسان في بطوننا سنخلقه ونحمله ونغذي فيه الحياة؟

كنت أحس في أعماق (آدم) هموماً لا يود الإفصاح عنها مباشرة، إنما فضل أن يواريها خلف قناع من تساؤلات فلسفية وشكوك وجودية، لكني خمنت من خلال أحاديث متقطعة مبهمة كان يفصح عنها في أثناء ثمالته أن في أعماقه كانت تجري مقارنة لا تكل بين زوجته و(امرأة القارورة). لعلّ تجربة (هاجر) قد نبشت في روحه إحساساً ينتاب الكثير من الأحبة والأزواج: تهب أنسام الأخوّة فتخمد حرارة الشهوة؛ روحاهما كانتا تنسجمان أكثر مع ديمومة العلاقة، لكن جسديهما كانا يملّان التكرار. يقول إنه صار مقتنعاً بأن الشهوة نقيض الأخوّة.. هي غرابة وبدائية متحررة من العقل والتفاهم، والأخوّة هي تعود ومعرفة وتقدير. بدنه منفصل عن زوجته لكن روحه مشتبكة مع روحها. على الأرجح أن المعضلة لا تكمن في شهوانية الجسد وطهارة الروح، بل في محدودية قدرة الجسد على إشباع شهوانية الروح. ظلّ يمارس معها لذته كالمعتاد، لكنه فقد حُمى التفرد والتمايز؛ وهذا بالذات علّمته إياه (امرأة القارورة).

التقيت (مارلين) في مناسبات عديدة. في كل مرة كنت اقرأ على محياها آثار حزنها وقلقها على زوجها وجنينها. ما كانت تفقه سر التغييرات التي طرأت فجأة على (آدم). أنا من انتبه إلى عودة أحاسيس غريبة يفترض أنها فارقته بعد أن تركنا الوطن. حبه لزوجته قد غدا شبيهاً بحبه القديم لأهله. في كل مساء عند عودتنا إلى الدار في بغداد، كان قلب (آدم) مضطرماً بهاجس خوف ورغبة: أن تكون قد حلّت نكبة بعائلته، وجميع إخوانه وأخواته ووالديه قد قضوا نحبهم في حادثة. كان حلم يقظة اقرب إلى الواقع، حتى أنه كان يتوهم للحظات أن أبناءالجيران الراكضين في الزقاق مقبلون ليخبروه بالكارثة. كان خياله يسرح في حالته عندما يتلقى الخبر. سيحزن ويبكي ويندب لكنه سيتحرر من عبودية حبهم.

لا أدري كيف وجدت نفسي ذات يوم أقوم بإقناع (آدم) و (مارلين) بتمضية يوم أحد في نزهة في جبال الألب التي لم تنقطع الثلوج عنها حتى في الصيف. بينما كان القطار يشقّ دربه نحو مقاطعة (فاله)، كنت أتمعن في وجوهنا ترتسم عليها خطوط هاجس بأننا نقوم برحلتنا مدفوعين بخفايا بعيدة عن متعة الثلج. لم تكن النيات واضحة، حتى أنا كنت مشتتاً بين ظنين: الترفيه عن (مارلين) وخلق فرصة تفاهم بينها وبين (آدم) بينما في الأعماق ثمة رغبة مدفونة: أن نقف جميعنا أمام بعضنا البعض لتتمزق عنّا شرنقة غموض وحيرة نسجتها الظروف حولنا. كنت راغباً في أن أتخلص بضربة طائشة من وضعية مقلقة وطارئة.

كانت شمس (أيلول) تلقي بضيائها على وجهيهما وقد طاف

نظرهما، عبر النافذ، على تدرج ألوان رائع في ألقه، يبدأ من زرقة بحيرة وخضرة شاطيء وعتمة سفح وبياض قمة، ثم زرقة سماء فضية.

كنت أفكر لو أن (هاجر) معنا الآن لأحبَّت (مارلين) مثلنا ولوجدت فيها امرأة تجيد الصداقة والإصغاء. انتبهت إلى أن عواطفي إزاء (مارلين) كانت تتعمق وتتلبس شكلاً غريباً عن طباعي القديمة. كانت مشاعر خاصة فيها من العادي بقدر ما فيها من الغموض. وأنا أرقب بطنها يكبر بالجنين كنت أحس كأني معني بالأمر ثم ما سرّ التغيرات الحاصلة؟ (آدم) لا يزال ينزلق إلى حياة عابثة شبيهة بحياتي المعتادة بينما أنا أنسحب إلى حالة من الانكفاء على الذات، والتفكير بطريقـة أقل شهوانية.. صرت أميل أكثر فأكثر إلى البقاء في غرفتي وتمضية وقتي في رسم وتأمل. خفتت فيّ نيران توقي إلى الناس والنساء والأصحاب.

وصلنا إلى القرية واستأجرنا زلاقات. وتمنيت لو أن (هاجر) مستمرة في وجودها، تحكي عن تواريخ أوطان وشعوب وبشر حالمين وأشرار وطيبين وأبطال ومسحوقين. إني على يقين لو أنها بقيت معنا، فحبها لـ (آدم) لن يتأثر بتبدل مشاعره نحوها. سوف تعشقه وتود أن تشارك (مارلين) بحبه. سوف تحافظ على مرارتها وإباحيتها معه غير أنها ستكون فاقدة لطـواعيتها القديمة وخضوعها الطبيعي لنزواته. سوف لن تكون تابعة له في ملذاته بعد أن باتت مثل زوجته، شريكة مساوية له ومتميزة عنه. سوف تتصاعد خيبة (آدم) بها وهو يراها تستحيل إلى امرأة تتعب وتتمرض وتحلم برجل يمنحها الأمان ويخفف عنها

أوجاع الوحدة. وسوف يفقد معها جنون المتعة وتلقائيتها. سوف يتوجب عليه أن يتباطأ، يداعبها وقتاً ليهيئها، وعليه أن يمارس بانتباه حتى لا ينتهي قبلها ويحرمها من ذروة النشوة. وعندما ينتهي، إياه وأن ينسحب، عليه أن يبقى ملتصقاً بها ويداعبها لأن لذتها لا تنتهي معه عند الذروة، بل تظل وقتاً بعده وتنخفض.

أمضينا النهار في القمة المثلجة، تغمرنا أشعة ذهبية تنسكب على ثلج فضي. دون أي إعداد أو تفكير، وكأني كنت انفذ إرادة عليا أشبه بمصير، امتدت كفي خلسة إلى حقيبتي السوداء. نظرت إلى القارورة التي تركتها (هاجر) وغابت. لعل (مارلين) لم تفقه غايتي وهي تراني أسكب سائل الخلود في قارورة نبيذنا الأحمر. رمقتني ولمعان الفضاء في عينيها. رفعت قارورة النبيذ وراحت تصب في كؤوسنا الثلاث ذلك الخيط الأحمر المتماوج. رفعنا الكؤوس واتجهت أبصارنا نحو بطن (مارلين) ووضعنا أكفّنا عليه، ونطقنا معاً بصوت واحد «نخب صحتك أيها القادم.. فليغمرك سلام أبدي....».

بقينا جالسين بعد أن انتهينا من نبيذنا. كانت الشمس قد حطت قبالتنا على قمة الجبل. رأيت في عيونهما كيف أن (هاجر) بحضورها وغيابها قد أثرت فينا جميعاً. حتى (مارلين) تحمل جنينها بفضل خصب (هاجر). أما أنا و (آدم) فقد نقلتنا إلى دورة جديدة. يخيَّل إليّ أننا عندما انطلقنا من جزيرة طفولتنا، كلّ منا شقَّ طريقاً في المحيط معاكساً لاتجاه الآخر. حينما أكملنا نصف دورتنا حول الأرض، في الوسط، عند جزيرة هجرتنا التقينا معاً بـ (امرأة القارورة). كانت حلماً، فيه

اجتمعنا واندمجنا؛ لكننا انفصمنا بعد أن غرقت جزيرة حلمنا في غياهب بعيدة. عدنا من جديد مجبرين على الافتراق، لنكمل النصف الأخير من دورتنا العكسية في محيط المجاهيل. (آدم) شقَّ طريقاً أتيت منه، وانا اشقُ طريقاً أتى منه، عسى أن نلتقي مرة أخرى في جزيرة عالم آخر.

أحسست بنشاط مفاجيء ورغبة جامحة في التزحلق والانطلاق كأن جرعات السائل قد دست يداً عابثة في رأسي. قمنا و (مارلين) وسطنا. تناولنا زلاقة خشبية طويلة وتوجهنا إلى منحدر قريب. كان المكان يعج بأناس يلعبون ويهبطون بزلاقاتهم. وضعنا زلاقتنا ووجهناها ناحية المنخفض. جلست أنا أولاً، وجلست (مارلين) بيني وبين (آدم) واضعة القارورة في حجرها. شبكت ذراعيها حولي، وندّ عنها فجأة صوت شاك: «تمهل.. أظن.. جنيننا هائج فـ....».

ولم أسمع بقية الكلام. قطعت صوتها ضجة مرور خاطف لزلاقة. ولا أدري أي يد قوية عابثة دفعتنا دون أن نتدارك الأمر. شقّت زلاقتنا دربها منحدرة بسرعة متزايدة. لم يكن طبيعياً أن تطول هكذا مسافة الانحدار، فهناك عادة مرتفع رملي يوقفنا. (مارلين) اشتد تشبثها بي، وذراعا (آدم) تحيطان بنا، وتعالت صرخاتها: «... الجنين... الجنين....».

راحت الأصوات تبتعد وتختفي. أشكال الناس والزلاقات وأشجار الأرز كانت تتبدد كأنها على شاشة آخذة بالاحتراق. الزلاقة كانت تعدو وتعدو.. تلتهم الدرب نحو الهاوية العظيمة. لم تنفع جميع محاولات إيقافها. حبات الثلج ملأت أحذيتنا،

وغارت أصابعنا فيه. عبثاً حاولنا أن نرمي أنفسنا. كنا ملتصقين بالزلاقة كأننا استحلنا إلى جزء من خشبها.

صار محتماً سقوطنا في أعماق الهاوية ليضمنا الوادي في أحضانه. شعورنا بالمصير القادم شدنا إلى بعضنا ولم نعد نميز بين أحاسيسنا. بدا الأمر كمعجزة وخرافة إذ رأينا زلاقتنا تجتاز حافة الهاوية وتمضي مُحلِّقة فوق الوادي.. كنا نطير! نظرنا: غابات.. نهير متجمد.. صخور عملاقة.. أكواخ رعاة..

زلاقتنا تتقدم نحو قمة الجبل.. نحو شمس مضطجعة هناك.. نغور في خيوط هالتها النحاسية. صرخاتنا قد امتزجت بصرخات (مارلين) وهي تعلو بكلمة واحدة: «الجنين...». كنا نتوغل ونتوغل في أعماق قرص الشمس مغمورين بشلالات ذهبية.

بدأ النور يتكشف شيئاً فشيئاً عن مشهد رؤيوي. زلاقتنا مستمرة باندفاعتها في صحراء ممتدة أمامنا نحو أفق غير مرئي. بثور وأورام منتثرة على السطح. رمال معفَّرة بآثار جمال وخيول وآلات. في الآفاق تنتشر ينابيع تنبثق منها نيران أزلية، هالاتها نحاسية داخنة تلطخ ازرقاق السماء، وروائحها نتنة آسنة تعبق في الهواء. الأب يقول عنها: «إنها من بقايا الشعوب العاصية.. اندثرت بأموالها وخطاياها في الأعماق.. ها هي الأرض تهضمها وتتجشأ بها غازاً مشتعلاً...». حول ينابيع النار تستلقي جثث: عسكريون ومدنيون، نساء وأطفال، أزياء مختلف عصور التاريخ، تعبث بها ريح من رمال ودخان وصرخات تعبق بروائح موت وميلاد.

صرخاتنا ممتزجة بعصف الريح ترتج في الفضاء، وزلاقتنا ما تكف عن اندفاعتها. تتجه نحو نهر يشقّ مجرى افعوانياً وسط الصحراء. على شواطئه انتثرت حقول وبساتين نخل وحمضيات. وفي مياهه الغرينية الحمراء، قد رموا سرّتنا. الأم تقول: «إن عشت يا ولدي فبفضل هذا النهر.. مثل أسلافك. يوم ميلادك رمينا إليه سرّتك. بمياهه تكونت خلقتك. وبمياهه ستظل خالدة روحك...».

بسرعة مدفوعة بقوة المصير، كنا نشق دربنا وسط نيران وجثث رمال وبساتين وحقول، تتفتح أمامنا بشغف تواق إلى أحضان النهر حيث دوامات حميمية ابتلعت ولفظت من قبلنا أقواماً وأقواماً...

رغم رعب الحقيقة التي كانت تنتظرنا، والدوامة الجائعة التي كانت تلفنا وتبتلعنا في عمقها؛ وبينما عيوننا تودع سطح الوجود، كان صراخنا يخفت وتسري فينا قشعريرة وسكون، ويعمّ روحنا صفاء شذري، وتتجسد أمامنا رؤية تبهرنا بوضوحها: جنين ينبجس من دوامتنا ويطفو مع قارورته فوق الماء ويزحف على الشاطىء باتجاه حقول وبساتين وينابيع نيران أزلية.

تتميز بفنتازيتها وأسطوريتها إذ تذوب فيها الفواصل بين عوالم الواقع والحلم والكابوس والماضي والحاضر الوسيلة والمنطق والجنون.

على الرغم من أنها قد لا تكون «رواية» بالمعنى المتعارف عليه. فهي أحق بالوصف بأنها «فانتازيا روائية» أقرب إلى أن تكون إعادة كتابة لسفر التكوين، بطلها هو الإنسان، وراويها (في بعض تجلياته) هو الله. ومسرحها الكون وقارات الأرض. وديكورها ميثولوجيات التاريخ ووقائعه المعاصرة معاً، ولغتها بلورية مصفاة.

رواية مرتبطة أوثق ارتباط بأساطير المنطقة العربية وتراثها الشعبي ومعتقداتها غير أن ذلك الارتباط لي
لها بل هو ينطلق منها كي يقول قوله الخاص
الأعماق الإنسانية التي يمتزج فيها الليل و
وتفصح الرواية عن قدرة باهرة على التخييل يتحول إلى واقع شديد الصلابة.

